الفصل الخامس

مقومات التربية

تمتاز التربية المنبثقة من القرآن الكريم عن غيرها بأن لها مقومات تقوم عليها وتمنع انحرافها عن الطريق الموصل للغاية المنشودة ، فهي تستند إلى قاعدة صلبة ولها جذور عميقة ، مما يجعلها تقاوم الأهواء الجامحة والنزوات الطائشة ، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .

وهذه المقومات هي : العقيدة والعبادات والأخلاق .

أولاً ـ العقيدة

تطلق العقيدة على الفكرة التي اقتنع بها المرء قناعة تامة ، فقبلها عقله واستقرت في قلبه واطمأنت بها نفسه وامتزجت بروحه . وهي في هذا الدين تشمل أركان الإيمان الستة التي بينها الله سبحانه وتعالى في قوله :

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

وحذر من الكفر بها في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١٣٦] .

وللإيمان بالقضاء والقدر آيات عديدة تدل عليه نبينها حين نتعرض له .

١ـ الإيمان بالله :

إن الإيمان بالله أهم قضية في الدين وأعظم مقوم في التربية ، ولا يحتاج الإيمان بالله إلى أدلة فلسفية وبراهين معقدة ، فالأدلة على وجوده كثيرة وواضحة ومنها :

أ) دليل وجداني : إن الإنسان يلتجىء إلى الله حين المصيبة ويدعوه حين الشدة مهما كان بعيداً عنه في حياته ، ومهما جادل وعاند في وجوده . قال الله سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

[يونس : ١٢] .

ولو بقي الإنسان على الحالة التي خلقه الله عليها لكان مؤمناً مائلاً عن الشرك :

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٣٠] .

ب) دليل اجتماعي تاريخي : إن البشرية منذ أن كفرت في عهد نوح ـ عليه السلام ـ وما بعده لم تنكر وجود الله ، ولم تخلُ أي لغة من كلمة تدل عليه ، ولكنها أشركت بالله وعبدت الأصنام ، ولم تتصور حقيقة الألوهية تصوراً صحيحاً ، ولم تجعل علاقتها بالله والكون مستمدة من شريعته . وكان الكافرون يعترضون على الرسالة والدعوة :

فقوم نوح لم ينكروا وجود الله ، ولكنهم لم يصدقوا بأنه أرسل إليهم

بشراً مثلهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون : ٢٣ـ٢٤] .

وقوم عاد أصروا على الشرك وعبادة ما كان يعبد آباؤهم :

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠] .

والمتكبرون من قوم صالح اعترضوا على شخص الرسول :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

[الأعراف : ٧٥ـ٧٦] .

والمشركون من العرب أقروا بأن الله هو الخالق لكل شيء :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

وعبادة الأصنام تدل على أن الإنسان لا يستغني عن إله يعبده ويتقرب إليه ، فإذا لم يعبد الإله الحق عبد آلهة زائفة . والكفر عارض في تاريخ البشرية ، وكلمة الكفر نفسها تدل على وجود الله ، لأنها بمعنى التغطية ، فهي محاولة لإخفاء شيء موجود ، ولو كشف الغطاء لظهر وجوده لكل ذي بصيرة[1] .

---

(١) في مختار الصحاح : مادة كفر : « كل شيء غطى غيره فقد كفره ، ومنه سمي الكافر لأنه يستر نعم الله عليه . والكافر : الزارع لأنه يغطي البذر بالتراب » .

ج) **وجود الكون** : إن وجود هذا الكون الذي نعيش فيه يدل على وجود الله عز وجل ، لأن الكون وما فيه من مجرات ونجوم وكواكب لم يكن موجوداً من الأزل ، وإنما وجد من العدم . ولقد كان الفلاسفة المسلمون يستدلون على ذلك بما يطرأ على الكون من تغير وتبدل .

قال الإمام الغزالي رحمه الله : « كل جسم فلا يخلو عن الحوادث ، وكل ما لايخلو عن الحوادث فهو حادث ، فيلزم منه أن كل جسم فهو حادث . . إذ لا يستريب عاقل قط في ثبوت الأعراض في ذاته من الآلام والأسقام والجوع والعطش وسائر الأحوال ولا في حدوثها . وكذلك إذا نظرنا إلى أجسام العالم لم نسترب في تبدل الأحوال عليها ، وأن تلك التبديلات حادثة . . »[1] .

والعلماء في هذا العصر متفقون على حدوث الكون ، ويقدرون عمره بنحو عشرين ألف سنة . وبما أن الكون حادث فإن تفسير حدوثه لا يعدو ثلاث فرضيات :

١ـ **وجد دون موجد** : وهذه الفرضية لا يقبلها عقل ، لأن المادة تتصف بالعطالة ، فلا توجد دون موجد ، ولا تتحرك دون محرك ، وقانون السببية الذي هو من بديهات العقل ـ كما قال كانت ـ يجعل الإنسان يسأل عن موجد الكون ، ولا يصدق بإمكان وجوده دون موجد .

٢ـ **أوجد نفسه بنفسه** : وهذه الفرضية لا تقل في تهافتها عن الأولى ؛ لأن المعدوم لا وجود له ، فلا يمكن أن يوجد نفسه ، ولابد له من موجد .

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد/ الغزالي ـ الطبعة الأخيرة ـ مصطفى البابي الحلبي بمصر ، ص ١٦ .

٣ـ **هناك قدرة عظيمة أوجدت الكون** ، وصاحب هذه القدرة لا يمكن أن يكون أحد أجزاء الكون ، لأن الإنسان أعظم الكائنات لا يستطيع أن يوجد ذرة رمل من العدم فضلاً عن خلق نفسه وخلق هذا الكون الهائل .

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور : ٣٥ـ٣٦] .

د) **دليل الحكمة والنظام** : وليس هذا الكون موجوداً بشكل عشوائي ، بل منظم تنظيماً دقيقاً يدل على اتصاف خالقه بالقدرة والعلم والحكمة . وآيات القرآن الكريم تلفت أنظار الناس إلى أرجاء الكون وتحث على التفكير في نظامه الرائع :

﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد : ٢ـ٣] .

وتوالي الليل والنهار ، ونقصان أحدهما وطول الآخر بما يتناسب مع فصول السنة ويتفق مع دورة الحياة شاهد على وجود الله وحكمته :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج : ٦١] .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ

﴿ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص : ٧١ـ٧٣] .

ودوران الشمس والقمر والنجوم والكواكب بسرعة منتظمة دون أن تنحرف عن أفلاكها المرسومة لها منذ آلاف الملايين من السنين دليل على قدرة الله وعلمه :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٣٧ـ٤٠] .

وكلما تقدم العلم اكتشف العلماء في الكون الفسيح وفي الأنفس البشرية مزيداً من الأدلة الشاهدة على وجود الخالق والناطقة بالحق الذي نزل به القرآن الكريم :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

هـ) **دليل الحياة** : لم يكن أي شكل من الحياة على ظهر الأرض عند بدء تكوينها ، فقد كانت حرارتها مرتفعة إلى درجة لا تطيقها الكائنات الحية ، ولم يكن هواؤها مناسباً للحياة . ثم ظهرت عليها النباتات والحيوانات ، وظهر الإنسان بعد عصور مديدة . وسواء أكان الكائن الحي بسيطاً أم معقداً ، وبدائياً أم راقياً ، فلا يمكن أن يوجد بنفسه ، إذ لا يمكن للمادة أن تدب فيها الحياة دون خالق منحها إياها . ولقد أجرى علماء الشرق والغرب تجارب طويلة دامت عشرات السنين ، حاولوا فيها

أن يوجدوا أبسط أجزاء الخلية الحية من العناصر المكونة لها ، فباؤوا بالاخفاق الذريع .

ولا يمكن أن يكون أصل الحياة هبط على الأرض من الكواكب الأخرى ، لأن كواكب المجموعة الشمسية لا تصلح للحياة الموجودة على هذا الكوكب بسبب قربها من الشمس أو بعدها عنها ، وبسبب اختلاف تركيب جوها عن جو الأرض . ولو وجدت حياة على الكواكب التابعة للشموس الأخرى فلا يمكن أن تقطع مسافات تقدر بالسنين الضوئية لتهبط على كوكبنا . ولو أمكن ذلك لعدنا نسأل عن سبب نشوء الحياة فيها .

وبعد انبثاق الحياة لا يمكن استمرارها وتكاثرها بالانقسام أو التوالد دون خالق جعل فيها هذه الخاصية ، وأوجد لها ما تحتاج إليه من عناصر للغذاء والنمو والبقاء إلى أجل مسمى .

ولترسيخ الإيمان بالخالق أمرنا بالتفكير في خلق الحيوانات وخلق السموات والأرض :

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧ـ٢٠] .

وأمرنا بالتفكير في خلق أنفسنا وأصل تكويننا :

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾

[الطارق : ٥ـ٧] .

وأمرنا بالتفكير في أعضائنا وحواسنا : ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠ـ٢١] .

فالله ـ جل جلاله ـ هو خالق الأحياء ، وهو الذي يحفظ حياتهم ، ولا يمكن لغيره أن يخلق أتفه الحشرات :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] .

و) **دليل القدرة والطاقة** : لقد اكتشف العلماء في هذا الكون ملايين المجرات ، وفي كل منها مئات الألوف من النجوم . وهذه النجوم تطلق طاقة هائلة على شكل ضوء وحرارة منذ آلاف الملايين من السنين ، ولا يمكن لهذه الطاقة أن تنطلق بنفسها ، فالعلماء يعملون سنوات طويلة لبناء مصنع يولد الطاقة من الفحم أو مشتقات النفط أو نتيجة الانفجار النووي ، ومهما كان هذا المصنع من الضخامة فإن الطاقة التي يولدها تكون محدودة ، ولا يصلح للعمل أكثر من سنوات لا تبلغ مدة عمر الإنسان . ولابد من إله خلق الشمس والنجوم وجعلها تشع الضوء وتنشر الدفء بالمقدار المناسب للحياة :

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾

[الفرقان : ٦١] .

ز) **دليل الوحي** : وعلى الرغم من وضوح الأدلة والبراهين العلمية المبثوثة في هذا الكون الفسيح والشاهدة بوجود الخالق ، فإنه ـ سبحانه ـ أوحى إلى المصطفين من عباده ليدلوا الناس على ربهم ويهدوهم إلى الإيمان به . وسنبين ذلك في بحث الإيمان بالكتب والرسل .

وحدانية الله تعالى :

مع اعتراف معظم الناس بوجود الله عز وجل فإن أكثرهم يشركون به في الاعتقاد والتصور أو في الوجدان والمشاعر ، أو في العبادات والشعائر : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

والشرك قد يكون في صورة سافرة أو خفية ، في القلب أو في الجوارح ، فشرك القلب يكون في الاعتقاد بوجود إلهين أو أكثر :

﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾

[النحل : ٥١] .

وليس لله والد ولا ولد ولا شريك ، وكيف يكون له ولد وهو الخالق لكل شيء وليس له صاحبة :

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٠ـ١٠٢] .

ولو كان مع الله آلهة كما يزعم المشركون لطلبوا الرفعة والعزة ، ولتنازعوا فيما بينهم :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٤٢ـ٤٣] .

ولو تعددت الآلهة لاختلفوا فيما بينهم ، ولأدى ذلك إلى اضطراب الكون وفساد السموات والأرض :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

[الأنبياء : ٢٢] .

أو لأدى إلى تقسيم الكون بين الآلهة ، واختصاص كل إله بقسم ، وتنظيمه بشكل مختلف عن غيره :

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١] .

ولكن دراسة بنية الكون والتأمل في تركيبه ونظامه يدل على وحدانية خالقه : فمن حيث البنية تنقسم الكائنات إلى أشياء ميتة وأجسام حية ، والأجسام الحية تشمل الإنسان والحيوان والنبات ؛ والناس جميعاً متشابهون في أجسامهم ومتماثلون في تكوينهم مما يدل على أن خالقهم واحد . والحيوانات كذلك تتشابه في أعضائها وأجهزتها الأساسية : الرأس والجذع والأطراف وجهاز القلب والدوران وجهاز الهضم والجملة العصبية وغيرها ، والتشابه الأكبر يكون في تركيب خلاياها ، إذ أن الأجسام الحية تنقسم إلى خلايا صغيرة ، وهذه الخلايا تتشابه في بنيتها وصفاتها ، ولا فرق بين الخلية الحيوانية والخلية النباتية من حيث الغلاف والنواة التي تحيط بها الهيولى ، وتشتمل على مورثات وعناصر معينة ؛ وهذا التشابه في البنية والتركيب يدل على وحدانية الخالق .

وإذا حللنا الأجسام الحية تحليلاً كيميائياً فلا نجد فيها سوى العناصر الموجودة في التربة ، وكذلك لا يوجد في النجوم والكواكب والشمس والقمر ـ كما اكتشف العلماء ـ سوى العناصر المعروفة في الأرض . وهذا يدل على أن خالق الكون بجميع أجزائه واحد لا شريك له . وبعد أن توصل الإنسان إلى تفجير الذرة ووقف على كثير من أسرارها ، تبين أن العناصر تتشابه جميعها في بنيتها ، لأن ذرات العناصر كلها تتألف من نواة وألكترونات تدور حولها ، والنواة تتألف من بروتونات ونوترونات تختلف في عددها من عنصر إلى آخر ، وتتفق في بنيتها ، كما تبين أن الطاقة التي تنطلق من الذرات حين انشطارها أو التحامها هي وجه آخر للمادة ، والألكترونات تدور حول النواة ، ولكل واحد مداره القريب أو البعيد منها ، كما تدور الكواكب حول الشمس ، والقمر حول الكوكب التابع له ، والنجوم حول مركز المجرة . وهذا يدل بما لا يدع مجالاً للشك على وحدانية الله عز وجل .

وليس لغير الله سلطة على أي جزء من الكون وقدرة على التصرف المطلق فيه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤٠ـ٤١] .

ولكن مع الاعتقاد بوحدانية الله تعالى فقد يشرك المرء في وجدانه ومشاعره ، وذلك حين يخشى غير الله على حياته أو يطلب رزقه من غير خالقه وبغير الوسائل التي شرعها لطلبه ويرجو النفع ودفع الضر من غيره ، فقد قدر الله الأعمار للأمم والأفراد :

﴿ قُل لَّكُمْ مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ : ٣٠] .

وساعة الأجل لا يحول دونها أمنع الحصون :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨] .

وليس لأحد قدرة على منح الحياة أو سلبها إلا الله :

﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان : ٣] .

والاعتقاد بوحدانية الله يقتضي التصديق بأن الله هو الرازق لعباده :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر : ٣] .

وهو الذي يوسع الرزق على بعض الناس ويضيقه على بعضهم الآخر ، فيمنح كل واحد ما يتناسب مع حاله : ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [العنكبوت : ٦٢] .

وهو ينزل رزقه بمقدار معين لكيلا يطغى الناس ويفسدوا في الأرض :

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] .

وتوحيد الله يقتضي الاعتقاد بأن النفع والضر بيده وحده :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] .

والمؤمن يعتمد على الله وحده في أموره كلها ، ويتوجه إليه بالدعاء ، ويطلب منه العون والتوفيق ، ولا يخشى غيره ، لعلمه أنه لا يستطيع أحد أن ينفع أو يضر إلا بإذنه :

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس : ١٠٦-١٠٧] .

والشرك في الجوارح يكون في القيام بالطقوس والعبادات لغير الله ، كتلك الأعمال والحركات التي يقوم بها الكهنة غير المؤمنين ، والطقوس التي يفعلها عباد الأصنام ، حتى العبادات التي لا تختلف في ظاهرها عن عبادات المؤمنين إذا لم يتوجه بها فاعلوها إلى الله وحده : فمن صلى أمام الناس وأطال القيام والركوع والسجود وتظاهر بالخشوع ليحصل على تقديرهم يعتبر مرائياً والرياء نوع من الشرك ، ولا يقبل الله من الأعمال إلا ماكان خالصاً له ، وكذلك من أنفق المال على المحتاجين ليشتهر بين الناس بالجود والسخاء هو مراء ليس له أجر على صدقته :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

الآثار التربوية لعقيدة التوحيد :

١ـ إن للإيمان بإله واحد آثاراً تربوية عظيمة في النواحي النفسية والخلقية والاجتماعية :

فالمؤمن بإله واحد يشعر بالاطمئنان النفسي لأنه يتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله الذي خلقه وخلق هذا الكون الذي يعيش بين جنباته ويستفيد من خيراته :

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ٧٩] .

والمؤمن ينظم أموره كلها بشريعة الله ، فيحصل الانسجام بين الجانب الإرادي والجانب اللاإرادي من نفسه ، ذلك الجانب الخاضع لسنة الله دون أن يكون للشخص سلطة عليه ، كما يحصل الانسجام بين نفسه وبين الكون الذي يعيش فيه ، وبينه وبين المجتمع الذي ينضم إليه .

والمؤمن يشعر بالاطمئنان نتيجة لإيمانه بأن حياته ورزقه وأموره كلها بيد الله تعالى ، وهو يتلقى منه المبادىء والمثل والشرائع والقوانين .

أما الكافر فهو قلق دائماً : قلق على حياته وعلى رزقه ، وهو لا يعلم لماذا خلق وما مهمته في هذه الحياة وما مصيره بعد الموت . وهو يتوجه بالطقوس والشعائر التعبدية إلى جهة ، ويسعى لتحصيل رزقه من جهة ثانية ، ويخاف قوى عديدة بشرية وغيبية على حياته ونفسه ، وهو في صراع دائم مع نفسه ومع الناس ومع الطبيعة ، بسبب خروجه عن النظام الإلهي للكون والإنسان .

٢ـ والإيمان بإله واحد يؤدي إلى شعور المؤمن بالقوة والعزة والكرامة : فالمؤمن قوي لأنه يستمد من قوة القوي العزيز ويتوكل على

العلي القدير . وعندما يخاف الناس وتظهر عليهم علامات الجبن والذعر فإن المؤمنين يثبتون وتظهر عليهم علامات القوة والجرأة ، فحين تلقى أصحاب النبي ﷺ رسالة الكافرين بأنهم حشدوا الجيوش للقضاء عليهم ازدادوا إيماناً بتوكلهم على الله :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ـ١٧٤] .

وهكذا يكون شأن المؤمنين أبداً ، قوة لا تعرف الضعف ، وجرأة لا تعرف الخور ، وثباتاً لا يعرف الهزيمة ، واستعلاء ينكر الخضوع لغير الله :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

[آل عمران : ١٤٦ـ١٤٧] .

والمؤمن يشعر بالعزة والكرامة ، فلا يحني ظهره لغير خالقه ولا يذل نفسه لغير بارئه ، لأن الله أعز المؤمنين ورفع شأنهم :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[المنافقون : ٨] .

٣ـ والإيمان بالله قاعدة للحرية والمساواة والعدالة :

أما الحرية فلا تتحقق بشكل صحيح إلا في ظل العبودية لله عز وجل ، فحينئذ يتحرر المرء من أهواء نفسه الأمارة بالسوء ، ويتحرر من الخوف على حياته ورزقه ومستقبله ومصيره ؛ لأنه يعلم أن الله وحده مالك أمره ، فلا يخضع لمخلوق مثله . وحين يستمد الرجل حريته من رب العالمين

لا يرضى بأن يسلبها منه أو يضع قيداً عليها طاغية مستبد ، فتراه يضحي بماله وروحه للحفاظ على حريته ، لأنه لا يرى قيمة للحياة دونها . وبذلك تحافظ الأمة على سيادتها واستقلالها ، ويبذل الأفراد أقصى جهودهم لرقيها وازدهارها .

والحرية الممنوحة بشريعة القرآن لا تقتصر على فئة محددة أو طبقة معينة ، وإنما تشمل الناس جميعاً ، لأنها ليست منحة من الطبيعة ، فيستغلها الأغنياء والأقوياء ، ويحرم منها الفقراء والضعفاء . وليست نعمة من الملك أو الإمبراطور فيغدقها على المقربين اليه ويحجبها عمن دونهم . وليست تشريعاً من إحدى سلطات الدولة فتكون لصالح بعض الناس دون بعضهم الآخر ، فشريعة القرآن مبرأة من التحيز والعنصرية ، والحرية المنظمة بأحكامه تحقق العدل وتمنع الظلم .

وأما المساواة فهي نتيجة للإيمان بأن الله خلق الناس جميعاً من نفس واحدة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً . . ﴾ [النساء : ١] .

وكان الناس يفتخرون بأنسابهم فتبين أنهم جميعاً ينتسبون إلى آدم عليه السلام ، وكانوا يتمايزون بأجناسهم وقبائلهم وألوانهم فتبين أنهم عند الله على حد سواء . وكان بعضهم يزعم أنه خلق من رأس الإله وأن الآخرين خلقوا من قدميه فتبين بطلان هذا الادعاء . وكانوا منقسمين إلى طبقات يعلو بعضها فوق بعض فتبين أن أصلحهم وأتقاهم هو أفضلهم عند الله .

وحين يخضع الناس لشريعة القرآن تتحقق فيهم المساواة بأوسع معانيها . ولا توجد المساواة في مجتمع يتلقى تشريعاته من الكهان أو رؤساء العشائر والحكام ، فذلك يجعل بعض الناس عبيداً لبعضهم

الآخر . وعقيدة التوحيد تقضي بخضوع الناس جميعاً لشريعة الله :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

والمساواة تعني بالدرجة الأولى تكافؤ الفرص في العلم والعمل ، وهذا ما يجعل كل فرد يقوم بواجبه ويحصل على حقه ، ويجعل المجتمع في أعلى درجات الرقي والحضارة .

وأما العدالة فهي الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب وما تضمنته من مبادىء وقيم . وقد أمر الله بالعدل ونهى عن التحيز إلى جانب الذين نحبهم أو ضد الذين نكرههم :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

٤ـ الإيمان بالله يؤدي إلى تقويم السلوك وتهذيب النفس ، لأن المؤمن يعلم أن الله مطلع على عمله ، عليم بما يجول في نفسه ، وأنه مجزي على فعله :

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ۖ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٩ـ٣٠] .

وهذا ما يجعله نقي السريرة مخلصاً في عمله صالحاً في السر والعلانية .

٥ـ وبذلك يكون الإيمان بالله أقوى سند للإنسان لكي يسلك طريقه في الحياة بنجاح وسعادة ، ويتغلب على الصعاب التي تجابهه ، ويحقق أمانيه ؛ يقول وليم جيمس : « الإيمان من القوى التي لا بد من توافرها لمعاونة المرء على العيش ، وفقدها نذير بالعجز عن معاناة الحياة »[١] .

ويقول أيضاً : « إن بيننا وبين الله رابطة لا تنفصم ، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه ـ سبحانه وتعالى ـ تحققت كل أمنياتنا وآمالنا »[٢] .

٢ـ الإيمان بالملائكة :

الملائكة مخلوقات نورانية لطيفة لا تأكل ولا تشرب ولا تنام ولا تتصف بذكورة أو أنوثة .

ودليل وجود الملائكة الخبر الصادق في القرآن الكريم :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر : ١] .

فهم رسل الله إلى المصطفين من عباده ، وهم متفاوتون في الشكل ، لبعضهم جناحان ولبعضهم ثلاثة أجنحة ، ولبعضهم أربعة أو أكثر ، والأجنحة تدل على القوة والسرعة . وعلى الرغم من عدم رؤيتنا الملائكة على الحالة التي خلقوا عليها فقد تتمثل بأجسام مرئية ، كما ظهر جبريل أمام مريم ، وبشرها بولادة عيسى عليه السلام :

---

(١) دع القلق وابدأ الحياة/ تأليف ديل كارنيجي ؛ تعريب عبد المنعم محمد الزبادي . . ط٤ القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٥٤ ، ص ٢٩٢ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٨ .

﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: ١٧-١٩].

ودليل امتناع الملائكة عن تناول الطعام والشراب في ضيف إبراهيم عليه السلام الذين ظنهم من البشر وقدم لهم عجلاً مشوياً ، فامتنعوا عن تناوله ، مما جعله يخاف منهم ، لأن الضيف الذي يمتنع عن الطعام يريد شراً بأهل البيت ، فأعلموه أنهم أرسلوا إلى قوم لوط لإهلاكهم ، وبشروه بإسحاق ويعقوب . قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : ٦٩-٧٠] .

وكما تستغني الملائكة عن الطعام والشراب للطافة أجسامها فإنها لا تنام ولا تنقطع عن عبادة الله وتسبيحه :

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٩-٢٠] .

والملائكة لا يتزوجون ولا يتناسلون ، وليسوا ذكوراً ولا إناثاً . ولقد ندد الله بالمشركين لزعمهم أن الملائكة إناث :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [النجم : ٢٧-٢٨] .

وليس في الملائكة من يعصي الله ويمتنع عن طاعته :

﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾ [النحل : ٤٩-٥٠] .

وأعمال الملائكة كثيرة ومتنوعة :

١ـ فمنهم من يسجل أعمال الناس وأقوالهم :

﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

[الانفطار : ١٠ـ١٢] .

٢ـ ومنهم من يبلغ الوحي إلى الرسل :

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢] .

٣ـ ومنهم المكلف بقبض الأرواح :

﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

[السجدة : ١١] .

٤ـ ومنهم المكلف بالنفخ في الصور :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل : ٨٧] .

٥ـ ومنهم الذين يحملون العرش ، ويسبحون بحمد الله ويدعون للمؤمنين ويستغفرون لهم :

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر : ٧] .

٦ـ ومنهم من يثبت المؤمنين حين يقاتلون في سبيل الله كما في غزوة بدر :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال : ٩] .

الجن :

والجن أيضاً مخلوقات خفية لا ترى على حقيقتها ، ولكنهم يأكلون ويشربون ، ومنهم الذكور ومنهم الإناث ، وهم يتزوجون ويتناسلون . وهم مكلفون بعبادة الله ، وفيهم المؤمن الصالح والكافر الفاجر :

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾ [الجن : ١١] .

﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن : ١٤-١٥] .

والكفرة الفجرة منهم هم الشياطين الذين حذرنا الله من غوايتهم ، وعلى رأسهم إبليس ـ عليه اللعنة ـ الذي بدأت عداوته لآدم منذ امتناعه عن السجود له :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٠] .

الآثار التربوية :

١ـ يؤدي الإيمان بالملائكة والتصديق بوجود الجن إلى توسيع مدارك الإنسان والآفاق التي يفكر فيها ، فيعلم أنه ليس المخلوق الوحيد الذي يقوم بعبادة الله في هذا الكون ، ويعلم أن الوجود لا يقتصر على الأشياء التي يراها ويحس بوجودها ، فهناك عالم الغيب وعالم الشهادة ، وقد أثنى الله على الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة .

٢ـ ويؤدي الإيمان بالملائكة إلى سمو الإنسان وترفعه عن الشهوات ، لأنه حين يعلم بوجود مخلوقات لا تأكل ولا تشرب ولا تنقطع عن

عبادة الله لا يجعل الطعام والشراب وسائر الملذات غاية حياته ، بل يرتفع فوق الحاجات المادية ويهتم بمعالي الأمور ، وهذا ما يجعله أكثر صلاحاً وأقوم تربية .

٣ـ كما إن الإيمان بالملائكة يجعل الإنسان مستقيماً مخلصاً في عمله بعيداً عن الغش والخداع وعن الأذى والعدوان ، لعلمه بوجود من يحصي عليه أنفاسه ويكتب أقواله وأفعاله .

٤ـ وحين يعلم المؤمنون بأن الله يمدهم بمن يقاتل معهم حين يجاهدون في سبيله فإنهم يصبحون أكثر شجاعة وأشد جرأة وهذا مايؤدي إلى قوتهم وعزتهم وانتصارهم .

٣ـ الإيمان بالكتب السماوية

أنزل الله كتباً على بعض رسله لتبين للناس ما يحتاجون إليه من أمور العقيدة وعالم الغيب وكيفية العبادة ، وتشرع لهم نظام المعاملات ، ولتكون سجلاً لأحكام الدين يرجع إليه المؤمنون فلا يلتبس عليهم شيء منها . قال الله تعالى :

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

والكتب المنزلة أربعة :

أولها : التوراة المنزلة على موسى عليه السلام .

وثانيها : الزبور المنزل على داود عليه السلام . قال الله سبحانه : ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء : ١٦٣] .

وثالثها : الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام ، وهو مكمل للتوراة وناسخ لبعض أحكامها . قال الله عز وجل :

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٤٦] .

ورابعها : القرآن الكريم المنزل على محمد ﷺ وهو مصدق لما قبله من الكتب وحاكم عليها :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ . . ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وبالإضافة إلى هذه الكتب أنزلت الصحف التي ذكر بعضها في قول الله تعالى :

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٦-٣٧] .

وقد تكفل الله ـ تبارك وتعالى ـ بحفظ القرآن الكريم :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وساعد الصحابة على حفظه وكتابته وفهمه والعمل بأحكام نزوله مفرقاً حسب المناسبات :

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

أما الكتب السماوية السابقة فقد وكل الله حفظها إلى الربانيين والأحبار ، ولم تتيسر كتابتها حين نزولها ، ولم تحفظ عن ظهر قلب ، فضاع بعضها وحرّف بعضها الآخر . قال الله تعالى في بني إسرائيل :

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة : ١٣] .

وقال في النصارى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : ١٤] .

وهذا لأن الكتب السابقة كانت خاصة بأمة معينة في العصور القديمة ، أما القرآن الكريم فهو كتاب الله الخالد الذي يجب على الناس كافة أن يقتبسوا من نوره ويهتدوا بهديه ويعملوا بأحكامه ويجعلوه أساساً ومقوماً للتربية إلى يوم القيامة .

٤ـ الإيمان بالرسل : الحاجة إلى الرسل :

١ـ احتاج الناس إلى هدي رب العالمين منذ أن وطئت أقدام أبيهم الأرض ، ولم يتركهم الله يتخبطون في الظلام ، بل أنزل على المصطفين منهم ما يهديهم إلى العقيدة والعبادة الصحيحة ، وما يجعلهم يفعلون الخير ويتصفون بالخلق الحسن ، ويقيهم من الفساد والضلال قال سبحانه :

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] .

٢ـ واحتاجوا إلى الرسل ليعرفوا حقوقهم وواجباتهم وينظموا حياتهم ويجعلوا العلاقات فيما بينهم على أساس الحق والعدل . قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

٣ـ واحتاجوا إليهم لتلقي هدى رب العالمين ولتبليغه وتوضيحه وبيانه وتفسيره :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] .

٤ـ واحتاجوا إليهم أيضاً ليجعلوهم قدوة لهم في سلوكهم ، وليتشبهوا بصفاتهم وأخلاقهم . قال الله تعالى آمراً بالاقتداء برسله :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] .

٥ـ والرسل هم أعظم المربين وأفضل المصلحين وأحسن المعلمين لأنهم يجتثون من النفوس ما علق بها من الأدران ، ويستأصلون من القلوب ما ران عليها من الخطايا ، ويغرسون فيها الأخلاق الفاضلة والخصال الحميدة . وبالاقتباس من النور الذي جاؤوا به يصبح الناس علماء صالحين وحكماء مخلصين . قال الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

٦ـ وبإرسال الرسل أقام الله الحجة على عباده :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام : ١٣٠] .

ولم يبق للناس عذر عند ربهم إن كفروا به وعصوه :

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٥] .

تعريف الرسل وصفاتهم :

الرسل بشر يوحى إليهم ويكلفون بهداية الناس ، ولا يختلفون عن سائر البشر في شيء من صفاتهم الجسمية ، غير أنهم أفضل المخلوقات لصلاحهم وحسن أخلاقهم ؛ ولذلك اصطفاهم الله وخصهم بالوحي :

﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص : ٦٨] .

وأهم صفات الرسل :

١ـ الصدق : وهذه الصفة ضرورية ليثق الناس بهم ويتلقوا مايخبرونهم به بالقبول . وقد وصف الله عدداً من الرسل بهذه الصفة :

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم : ٤١] .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٦] .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم : ٥٤] .

٢ـ الأمانة : وهذه الصفة ضرورية أيضاً لكسب ثقة الناس وحثهم على التحلي بمكارم الأخلاق . وقد أشاد الله تعالى بأمانة عدد من رسله وذكر أن كلا من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام قال لقومه :

﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء : ١٠٧ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ١٧٨ ، الدخان : ١٨] .

٣ـ الفطنة والذكاء والحكمة وسرعة البديهة والفصاحة والبلاغة : وذلك ليتمكنوا من تفنيد حجج المبطلين والرد على المعاندين وهداية

الضالين والفصل بين المتنازعين . قال الله تعالى بعد أن ذكر عدداً من الرسل :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

وقال سبحانه في تعليم رسله أصول القضاء والفصل في المنازعات :

﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ . . ﴾ [الأنبياء : ٧٨-٧٩] .

وقال في داود عليه السلام :

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص : ٢٠] .

وقال في فضل الرسل وصلاحهم ونفاذ بصيرتهم وسداد رأيهم :

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [ص : ٤٥-٤٨] .

٤- **والرسل معصومون عن المعاصي** : لأنهم قدوة لغيرهم ، فلو ارتكبوا معصية لجعلهم الناس حجة في فعلها .

وجوب الإيمان بالرسل :

ولا يصح إيمان من أنكر نبوة واحد من الرسل المذكورين في القرآن الكريم :

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

وقد توعد الله الذين يكفرون ببعض الرسل ويؤمنون ببعضهم الآخر فقال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

[النساء : ١٥٠ـ١٥١].

ولقد كان كل رسول يبعث إلى قومه خاصة في العصور الغابرة لصعوبة الاتصال بين الأمم ، ولم يكن بالإمكان حفظ تعاليم الرسول من بعده ، وكانت أحوال الأمم والشرائع المناسبة لها تتغير من عصر إلى عصر ؛ ولهذا بعث الله رسلاً متعددين على مر العصور :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾

[النحل : ٣٦] .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] .

فلما وصلت البشرية إلى مستوى من الرقي والنضج يؤهلها لحمل خاتمة الرسالات ، وأصبح بالإمكان الاتصال بين الأمم المختلفة وبين الأجيال المتعاقبة ، كانت رسالة محمد ﷺ للناس كافة إلى يوم القيامة :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

[الأعراف : ١٥٨] .

وهو الرسول الذي أخذ الله العهد على النبيين من قبله أن يؤمنوا به ويتبعوه وينصروه حين يبعث :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ

رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران : ٨١] .

ومن واجب كل من آمن برسول من قبله أن يؤمن به ويتبعه :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة : ١٩] .

تعاليم الرسل ومعجزاتهم :

يتفق الرسل في توحيد الله عز وجل والأمر بعبادته :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

كما يتفقون في سائر أمور العقيدة وفي أسس الدين ومبادئه وفي الفضائل والأخلاق :

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى : ١٣] .

ولكنهم يختلفون في الشرائع التي تنظم الحياة وتحدد العلاقات بين الناس ، لتكون شريعة كل رسول صالحة لأمته وعصره . قال الله تعالى :

﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ﴾ [المائدة : ٤٨] .

وكانت شريعة القرآن صالحة لكل زمان ومكان لما اتصفت به من مرونة وشمول ، فهي تحدد الأسس والمبادىء فيما يتغير بتوالي العصور وفيما يختلف بين الشعوب . ولا تذكر الأحكام الفرعية التفصيلية إلا فيما يبقى على حاله ويكون مناسباً للناس كلهم في جميع العصور .

ولقد جاء بعض الرسل بمعجزات ليصدقهم أقوامهم . والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة الذي يفوق طاقات البشر ، ويتحدى بها الرسول قومه .

ومن هذه المعجزات الناقة التي جاء بها صالح عليه السلام حين طلب منه قومه أن يأتيهم بآية على صدقه ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم ناقة عشراء تمخض . فأخذ عليهم العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه عهودهم ومواثيقهم قام إلى صلاته ودعا الله عز وجل ، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها . فعند ذلك آمن رئيسهم ومن كان معه على أمره ، وأصر بعضهم على الكفر .

وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب ماء البئر يوماً وتدعه لهم يوماً . وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم ، وكانت تسرح في أوديتهم . فلما طال عليهم ذلك واشتد تكذيبهم لنبيهم عزموا على قتلها فعقروها ، فأخذتهم الرجفة ، فأصبحوا في دارهم جاثمين[1] .

قال الله تعالى في تكذيبهم لرسولهم وطلبهم المعجزة وهلاكهم :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٣-١٥٨] .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٢٨ .

ولما دعا موسى عليه السلام فرعون إلى الإيمان لم يصدقه واتهمه بالجنون ، وهمَّ بسجنه وتعذيبه ، فجاءه بمعجزة تدل على صدقه ، وهي مبينة في قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾

[الشعراء : ٢٩ـ٣٤] .

أما عيسى ـ عليه السلام ـ فجاء بمعجزات دل عليها قول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

[المائدة : ١١٠] .

وهكذا نجد أن هؤلاء الرسل قد جاؤوا بكائن حي من شيء لا حياة فيه : ناقة تخرج من صخرة ، وعصا تنقلب إلى ثعبان ، وطين يتحول إلى طير . وكان رد الكافرين على هؤلاء الرسل واحداً وهو اتهامهم بالسحر بدلاً من تصديقهم والإيمان بهم .

وكانت معجزات الرسل السابقين مادية حسية لتكون مناسبة للناس في سذاجة تفكيرهم وقلة إدراكهم ، فلما اتسعت المدارك وتفتحت العقول كانت معجزة سيدنا محمد ﷺ التي اعتمد عليها في دعوته معجزة عقلية باقية يستطيع كل عاقل أن يتملاها ويدرك نواحي الإعجاز التي فيها وهي القرآن الكريم .

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال النبي ﷺ : قال « ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً

أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »[1] .

وفوق ذلك فقد جاء النبي ﷺ بمعجزات حسية كثيرة للدلالة على أن رسالته لا تختلف في أصلها عن رسالات الأنبياء السابقين ، ولكنه لم يكن يعتمد عليها في دعوته ، وهي مبينة في كتب السيرة ودلائل النبوة .

غير أن الرسول لا يستطيع أن يفعل شيئاً من الخوارق إلا ما أذن الله له فيه وسلطه عليه ، فالفاعل الحقيقي هو الله تعالى ، وما المعجزة إلا دليل على أن من جاء بها هو رسول الله حقاً .

الآثار التربوية :

١ـ يقدم الإيمان بالرسل للإنسان النموذج الصالح ليقتدي به . والتربية بالقدوة لها أثر كبير لا يقل عن آثار التربية الناتجة عن القناعة العقلية أو الإثارة العاطفية نحو الخير والحق .

٢ـ يجد الإنسان في تعاليم الرسل والكتب المنزلة أعظم المناهج والأسس التربوية ، ويجد فيها أحسن الأساليب والطرق للتربية القويمة .

٣ـ يجد الناس في شرائع الرسل نظاماً للحياة بكل جوانبها ، وهو النظام الوحيد المناسب لهم لأنه وضعه من خلق الكون وأبدعه على أكمل وجه .

٤ـ كما يجدون في سير الرسل المتعة والفائدة الجمة من الناحية الأدبية والخلقية والتاريخية .

---

(١) متفق عليه .

٥ـ الإيمان باليوم الآخر :

يعد الإيمان باليوم الآخر أهم أركان الإيمان بعد الإيمان بالله تعالى . لأن المرء لا يفعل ما يؤمر به ولا يترك ما ينهى عنه . ولا يندفع إلى عبادة ربه ، ولا يقوم بواجبه مالم يأتِ عليه يوم يحاسب فيه ويجازى على عمله .

ضرورة اليوم الآخر :

١ـ لابد من مجيء هذا اليوم ليتحقق العدل بين الناس ، ويصل كل واحد إلى حقه ، لأننا إذا تأملنا حياة الناس وجدنا فيهم الصالح التقي الذي ينتقص حقه ويعتدى عليه ، ووجدنا الفاجر الشرير الذي يظلم الناس ويأكل أموالهم بالباطل ، ويعتدي على الضعفاء ، ولا يناله العقاب . فلا بد من عودة إلى الحياة لينصف المظلوم ، ويلقى كل واحد جزاء عمله . قال الله تعالى :

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

[فصلت : ٤٦] .

٢ـ ولابد من بعث الناس ليعاقب الظالمون ويقتص منهم قال الله عز وجل :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

٣ـ ولو انتهت الحياة بالموت لكانت إقراراً للظلم ، والله حرم الظلم على نفسه وعلى العباد ، فلابد من اليوم الآخر ليتحقق العدل الإلهي . قال الله تعالى :

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

٤ـ ثم إن الإنسان قد يقضي حياته دون أن يكمل تدريبه وتحصيله من أجل حياة أفضل ، ويأتيه الموت وفي نفسه آمال كثيرة يريد أن يحققها ، وتبقى فيه قوى كامنة لا يصرفها في شيء . وهو لايستنفد طاقاته ، ولا يتمكن من استغلال ما أودع فيه من قدرات ، ولا يستفيد مما حصل عليه من علوم على الوجه الأكمل في هذه الحياة . فلو انتهت حياته بالموت لكانت عبثاً لا معنى لها ، والله سبحانه منزه عن العبث :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٥ـ١١٦] .

فلا بد من عودة إلى الحياة ليحقق الإنسان سعادته وينال عزته وكرامته . ومن غير المعقول أن يسخر الله للإنسان ما في الكون من الأشياء ، وأن يفضله على كثير من المخلوقات ، ويجهزه بهذه الأعضاء والحواس ، ويودع فيه تلك المواهب والقدرات ، ويزوده بالعلم والمعرفة ، ويهذبه بالخلق والتربية ، ثم تنتهي حياته بهذه المدة القصيرة التي يقضيها على ظهر الأرض .

أدلة قدرة الله على بعث الأموات :

١ـ ليست إعادة خلق الناس صعبة على الله عز وجل ، فإعادة الخلق أهون من بدئه ، وليس على الله شيء صعب :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٣٧] .

٢ـ وإن الذي خلق السموات والأرض لا يصعب عليه إحياء الناس يوم القيامة :

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر : ٥٧ـ٥٩] .

٣ـ كما أن الذي خلق الإنسان من نطفة وجعله كائناً سوياً قادر على إحيائه بعد موته :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٧ـ٧٩] .

٤ـ وإحياء الموتى شبيه بإحياء الأرض الميتة وعودة الحياة إلى الأشجار اليابسة ، بما هو مشاهد أمام أعيننا . وقد استدل الله عز وجل على بعث الموتى بخلق الناس من تراب وبإحياء الأرض الميتة فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج : ٥ـ٧] .

٥ـ وهناك موتى أحياهم الله تعالى في هذه الدنيا ليكونوا مثالاً على الإحياء في الآخرة ، كالذي مر على قرية خربة مات أهلها ولم يبق منها

سوى الأطلال والآثار ، فتعجب من قدرة الله على إحيائهم ، فأماته الله مئة عام ثم بعثه ليجعله عبرة لغيره ، وأمات حماره أيضاً ثم أراه كيف تتجمع العظام البالية ثم تكسى لحماً ، ويعود كما كان ، بينما بقي طعامه وشرابه دون أن يفسد طيلة هذه المدة :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[البقرة : ٢٥٩] .

ويكون البعث بالروح والجسد بدليل قول الله تعالى :

﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة : ٣-٤] .

أحداث اليوم الآخر :

تبدأ أحداث اليوم الآخر بالنفخ في الصور نفخة تؤدي إلى فناء الأحياء ، فلا يبقى سوى الملك الموكل بالصور وملك الموت وجبريل عليهم السلام . ثم يأمر الله ملك الموت بقبض روح من بقي حياً ، فلا يبقى غيره جل جلاله :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦-٢٧] .

وبعد ذلك يحيي الله إسرافيل ويأمره بالنفخ ثانية في الصور فتحيا الخلائق ، ويخرج الأموات من قبورهم ، ويجتمعون للحساب :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ

﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر : ٦٨-٦٩] .

ويطرأ تغيير هائل على الكون في ذلك اليوم ، إذ تنشق السماء وتنطمس النجوم ، وتجمع الشمس والقمر ، وتمد الأرض ، وتزول الجبال ، وتفجر البحار . قال الله تعالى :

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾

[إبراهيم : ٤٨] .

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ . [الانفطار : ١-٥] .

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة : ٧-١٢] .

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج : ٨-٩] .

ويتفاقم الخطب في ذلك اليوم حتى يتمنى الناس أن يذهبوا إلى النار ولا يبقوا يعانون من أهواله :

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل : ١٧-١٨] .

ويرجو الإنسان في ذلك اليوم أن ينجو بنفسه ، ولا يهتم بمصير أقرب الناس إليه :

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس : ٣٣-٣٧] .

ويومئذ تنقطع الصلات بين الناس إلا ما كان منها لله تعالى ، فالأصدقاء يصبحون أعداء مالم يكن حب الله تعالى هو سبب صداقتهم :

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف : ٦٧] .

بل يتمنى المذنب أن يفتدي نفسه بأعز الناس عليه :

﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾ [المعارج : ١٠ـ١٤] .

ولو حاول المسيء أن يدفع عن نفسه العذاب بالتماس الشفاعة من غيره أو دفع الفدية فلا يقبل منه :

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٢٣] .

ولو بذل الكافر ما في الأرض وضعفه لما نجا من العذاب :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٦ـ٣٧] .

ولا ينفع الإنسان في ذلك اليوم إلا إيمانه وعمله :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩ـ٤٢] .

وبعد الحشر هنالك الحساب على كل صغيرة وكبيرة :

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

[الكهف : ٤٧ـ٤٩] .

ثم يوضع ميزان العمل ، ويجازى الإنسان على كل ذرة من خير أو شر :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٠] .

ويتناول كل إنسان كتاب عمله ، فالصالح يعطى كتابه بيمينه ويحاسب حساباً سهلاً ، والمسيء يعطى كتابه بشماله أو من وراء ظهره ، فيخسر خسراناً مبيناً :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴾ [الانشقاق : ٦-١٢] .

ومن ثقلت موازينه كان من السعداء ، ومن ساء عمله كان من الأشقياء :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾

[المؤمنون : ١٠١-١٠٤] .

والصالحون يدخلون الجنة ، ويجتمعون فيها بأزواجهم وذرياتهم وأصحابهم الصالحين ، وينعمون فيها أبداً . أما المجرمون فيدخلون النار ويعذبون فيها أبداً :

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمْ فِيهَا

فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾

[الزخرف : ٦٨ـ٧٨] .

الآثار التربوية :

للإيمان باليوم الآخر أعظم الآثار التربوية بعد الإيمان بالله تعالى :

١ـ فهو يجعل الإنسان صالحاً طيلة حياته ، يفعل الخير في جميع أحواله ، ويريده للناس حتى الذين يقابلونه بالشر ، لعلمه بأن كل واحد يلقى جزاء عمله .

٢ـ وهو يجعل الشخص يتحمل المسؤولية ويقوم بالواجب على أكمل وجه ، ويجعله يصبر على الشدائد ، ويتحمل المشاق لتحقيق ما يعود عليه وعلى غيره بالنفع . ثم إنه يوجه إرادته نحو ما هو خير ، ويضبط غرائزه ويتحكم في دوافعه ، فلا يفعل إلا ما يرضي الله عز وجل .

٣ـ والإيمان باليوم الآخر يجعل المرء حريصاً على قول الحق وتأييد العدل ونصرة المظلوم ومساعدة الضيف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأن الله تعالى أمره بهذه الأعمال ، ووعده بالمثوبة عليها .

٤ـ ويجعل المؤمن يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله لرد العدوان وقمع الظلم ونشر الدين ، لإيمانه بأن ماينفقه من ماله يجده أحوج ما يكون إليه ، وأنه إذا جاد بنفسه في سبيل الله فإن روحه تصعد إلى بارئها وتكون جنات الفردوس مثواها .

٥ـ وهذا ما يجعل المجتمع في غاية القوة والصلاح ، ويجعل الأمة في أوج العزة والمنعة .

وبهذا نرى أن الإيمان باليوم الآخر ليس خرافة ، بل هو ضرورة تؤيده أدلة صحيحة ، وليس صارفاً للإنسان عن تحسين أحواله في الدنيا ، ولا يوجد تعارض بين العمل للآخرة والعمل لإصلاح الحياة الدنيا . فطريقهما واحد ، والسعي لهما مشترك :

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

[البقرة : ٢٠١] .

ولا يمكن إصلاح الدنيا وتحقيق سعادة الناس فيها حتى يؤمنوا بأنها طريق يسافرون عليه للوصول إلى الدار الآخرة . ويتزودوا بالزاد الذي ينفعهم لذلك السفر الطويل :

﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

٦ـ الإيمان بالقضاء والقدر :

القضاء هو حكم الله الأزلي في الكون والإنسان والحوادث على النحو الذي ستوجد عليه وتحدث فيه . والقدر هو وجود الأشياء ووقوع الحوادث وفق حكم الله فيها .

فقد قرر الله سبحانه ما سيخلقه وما يطرأ على مخلوقاته ، وما يقع من حوادث . ولا يخلق شيء ولا يوجد كائن ، ولا يولد إنسان أو يموت ، وما تحمل من أنثى أو تضع ، وما يمد من الأجل لكل حي أو ينقص منه إلا مكتوب من قبل حتى البذرة التي توضع في الأرض ، والورقة الساقطة من الشجرة ، وجميع ما في البر والبحر والأرض والسماء لا يكون إلا وفق قضاء الله تعالى ، ولا يحصل إلا كما هو مكتوب . قال الله تعالى :

﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر : ١١] .

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] .

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ قدر كل شيء بحجمه وشكله ومقداره ، ولا يوجد شيء إلا حسبما هو مقدر ووفق المقادير الموضوعة له وفي الأجل المحدد . وما يقع للإنسان من خير أو شر مقدر أيضاً ، قال الله تعالى :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ١١] .

والإيمان بالقضاء والقدر لا يجعل الإنسان فاقداً للقدرة والإرادة ، ولا يسلبه حريته واختياره ، فقد ترك الله للإنسان حرية الاختيار بين الإيمان أو الكفر :

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف : ٢٩] .

وليس لأحد من رسول أو غيره سلطة لإجبار الناس على الإيمان ، فلو شاء الله لجعل الناس جميعاً مؤمنين ، ولكنه تركهم وشأنهم ليلقى كل واحد جزاءه :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

ولا يجوز لأحد أن يتعلل بالقضاء والقدر ويحتج بمشيئة الله للشرك وارتكاب المحرمات كما فعل المشركون من قبل :

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٨ـ١٤٩] .

وقولهم هذا بعيد عن الحقيقة وعارٍ عن البرهان ، وما هو إلا رجم بالغيب وتقليد للسابقين . ومصير كل من قال به العذاب الشديد . وليس لأحد أن يحتج به ، فقد أقام الله الحجة على عباده ، وبلغهم الرسل ما نزل إليهم من الحق .

ومشيئة الإنسان من مشيئة الله ، فهو الذي منحه القدرة على العمل واتخاذ القرار ، ومشيئته مطلقة ، وعلمه لا يحد ، ورحمته وسعت كل شيء :

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣٠ـ٣١] .

وعلى هذا فإن كل ما يصيب الإنسان من حسنة أو سيئة يصح نسبته إلى الله تعالى ، لأنه هو المقدر له ، وهو الذي ألهم الإنسان ما يعمله ، ومنحه القدرة التي تمكنه من العمل . وقد ندد الله بالمنافقين الذين قالوا : إن الخير من الله ، وزعموا أن الرسول ﷺ سبب في الشر الذي يصيبهم ، وبين أنهما من عند الله فقال :

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٧٨] .

ومع ذلك فليس من الأدب أن تنسب السيئة إلى الله عز وجل ، لأن الإنسان هو الذي سعى إليها وكان سبباً في وقوعها :

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٧٩] .

والمصائب تنزل على الإنسان بسبب ذنوبه وتقصيره في واجباته ، أو بسبب إهماله وقلة احتياطه ، ولولا عفو الله لأصابنا الكثير منها :

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾

[الشورى : ٣٠] .

والنتيجة أن الإيمان بالقضاء والقدر لا يعفي الإنسان من المسؤولية عن عمله ، غير أن مسؤوليته لا تتعلق بالجوانب الخارجة عن إرادته كطول قامته ولون بشرته ، وإنما يسأل عن الواجبات الشرعية والتكاليف الملقاة عليه ؛ فإن قام بواجباته وأخلص في عمله استحق الثواب ، وإن ضيع الأمانة وغش في عمله ، وفعل ما نهي عنه ، وترك ما أمر به استحق العقاب .

آثار الإيمان بالقضاء والقدر :

إن لهذا الركن من أركان الإيمان آثاراً نفسية وتربوية على غاية الأهمية إذ أنه :

١ـ يمنع اليأس والتحسر حين يحاول الإنسان تحقيق شيء ويفشل فيه ، ويجعله يرضى بالنتيجة التي قدرها الله ، فهو أعلم منه بمصلحته :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وهذا ما يجعل الإنسان يبذل جهده ويستعين بربه لتحقيق ما ينفعه . قال النبي ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإذا أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا كان كذا ، ولكن قل :

قدر الله وما شاء فعل ، فإن « لو » تفتح عمل الشيطان »[1] .

٢ـ يقضي على الغرور والاختيال حين النجاح : فإذا أراد المؤمن تحقيق شيء ووفق فيه ، فإنه يعلم أن الفضل لله في تقدير ذلك وفي عونه عليه ، فيبقى متواضعاً حامداً لله الذي قال :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٢ـ٢٣] .

٣ـ يطهر القلب من الحسد : فحين تعلم أن الله فضل بعض الناس على بعض في الرزق ليبلوهم فيما آتاهم ، فإنك لا تحسد من هم أحسن حالاً منك ، وإنما ترضى بما قسم لك ، وتحمد الله على نعمه .

٤ـ يؤدي إلى الإقدام والشجاعة ، فالأعمار مقدرة والآجال محتومة ، وهذا يجعل المؤمن يجاهد بشجاعة لنصرة الحق وإزهاق الباطل ، لا يهاب الموت ، ولا يفر من لقاء العدو :

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب : ١٦] .

٥ـ يجعل الإنسان قوي الإرادة ماضي العزيمة : فهو يعلم أن مصيره بيد الله وحده ، فيتوكل عليه ، ويسير إلى غايته ، ولا يبالي بالعقبات التي يجدها في طريقه :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ۚ هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ٥١] .

٦ـ يجعل النفس راضية مطمئنة : وكيف لا ترضى وتطمئن وهي تعلم أن الله هو الذي يعطي ويمنع ويعز ويذل والخير بيده ، وهو على كل شيء

---

(١) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة .

قدير! وأي جوار يلجأ إليه الضعيف أمنع وأعز من اللجوء إلى الله القوي العزيز :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٦ـ٢٧] .

وبذلك يكون الإيمان بالقدر بلسماً لشفاء الجروح التي يصاب بها المرء حين يقوم بالمهام الصعبة ، وبرءاً للنفوس حين يصيبها الإعياء والسقم وهي تتصدى للمخاطر الجسيمة ، وكابحاً لنزوات الفرد من أن تجعله يخرج عن الطريق . والكافر ينهار إذا أصابه المكروه ، ويختال إذا أصابه الخير ، وينقطع عن العمل مدة طويلة بسبب يأسه وتحسره في الحالة الأولى ، وبسبب فرحه وسروره الذي يجعله ينغمس في الملذات ويقيم الاحتفالات في الحالة الثانية . ولكن المؤمن يستمر في عمله البناء الذي يعود بالنفع عليه وعلى أمته :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

وبينما يمتلىء قلب الكافر بالحسد إذا رأى من فضل عليه في الرزق ، وتطير نفسه شعاعاً إذا سيق إلى ساحة الوغى ، وتجده ضعيفاً خائراً في ساعة العسرة ، وشاكياً ناقماً حين المصيبة ؛ فإن المؤمن طاهر القلب ثابت الجنان مطمئن النفس ، صابر شاكر . قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لغير المؤمن ، إذا أصابه سراء شكر فكان خيراً له ، وإذا أصابه ضراء صبر فكان خيراً له »[1] .

---

(١) رواه مسلم والنسائي من حديث صهيب وسعد بن أبي وقاص .

وهذا يؤدي إلى سعادة الفرد وفلاحه ورقي الأمة وتقدمها .

* * *

وهكذا يتجلى أن الإيمان بالله ليس وهماً ولا خرافة ، وإنما هو حقيقة ثابتة وقضية مسلمة لا يماري فيها عاقل : ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم : ١٠] .

وليس الإيمان سبباً للجمود ولا عائقاً عن الرقي ، وليس صلة خاصة بين الإنسان وربه لا علاقة لها بالحياة ، بل هو أساس للتربية ومنطلق للإصلاح ودعامة لكل خلق وفضيلة .

وليس الإيمان بالله سبباً للظلم والاستبداد بل قاعدة للعدل والحرية ، وقد أخطأ « دينيس ديدرو »[1] Denis Diderot إذ قال : « إن الإيمان بالله مرتبط بالتسليم بحكم الفرد ، أو الحكم المطلق ، ولن يتحرر الناس حتى يشنق آخر ملك بأمعاء آخر قسيس »[2] .

أو لعله معذور في قوله لأنه رأى رجال الكنيسة في أوروبا يؤيدون الحكام المستبدين والملوك الظالمين بدلاً من أن يقاوموا الظلم والطغيان .

---

(١) دينيس ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤) Denis Diderot : كاتب مسرحي وناقد فني ، وأحد عمالقة فلاسفة التنوير ، وكان تجريبياً يرفض الوحي والمذاهب الميثافيزيقية ولد في لانجرز بفرنسا وتلقى تعليمه النهائي بكلية « لوس لجران » التابعة لليسوعيين بباريس ، وتم اختياره محرراً للموسوعة ، ثم أصبح المحرر الوحيد وكتب بنفسه عدداً كبيراً من المقالات في الفلسفة والسياسة والأدب والعلوم التطبيقية [الموسوعة الفلسفية المختصرة لأرنسون : ترجمة فؤاد كامل وآخرين ـ القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ص ١٣٨] .

(٢) قصة الفلسفة/ ول ديورانت ، ص ٢٨٩ .

وليس الإيمان بالله نتيجة للجهل والخوف من ظواهر الطبيعة في العصور القديمة ، بل نتيجة للتفكير السليم والأدلة الصحيحة ، وقد أخطأ الناس بسبب الخوف والجهل[١] .

كما أخطأ الذين زعموا أن الدين والإيمان بالله والعبادات أفكار تطورت عن الوثنية والشرك ، مثل « هربرت سبنسر »[٢] الذي قال : « إن الدين كان أول الأمر عبادة طائفة من الآلهة والأرواح ، ثم تطور إلى فكرة إله مركزي قوي قادر على كل شيء ، وتطورت طقوس الجنائز إلى عبادة ، وأخذت جميع مظاهر الاستعطاف التي تقدم للزعيم أو القائد على هذه الأرض تستخدم في الاحتفالات والصلوات والتزلف والتقرب إلى الآلهة .

وبدأ تقديم الهدايا إلى الآلهة ، وتطورت هذه الهدايا ، فأصبحت الدخل الذي تعتمد عليه الكنائس ومعابد الدين ، وتحول الركوع أمام الملك إلى ركوع وسجود أمام محراب الله . لقد نبعت جميع الديانات من هذه العبادات القديمة ، إن الدين هو الركن الأساسي في حياة الشعوب البدائية البسيطة ، كما أن الخرافات الدينية تلازم المجتمعات العسكرية

---

(١) المصدر السابق ، نفس المكان .

(٢) هربرت سبنسر (١٨٢٠ـ١٩٠٣): فيلسوف إنكليزي يرى أن الأخلاق هي التي تحدد موضوعات الدراسة التي تكون الإنسان المثقف ثقافة صحيحة ، وأن علم النفس هو الذي يحدد الطرائق المثلى للتعليم وتربية الفكر وإكمال الخلق وتربية الجسد . وأن النفع وما للشيء من أثر في سعادة الإنسان هو المعيار الحقيقي في تقدير موضوعات الدراسة وعناصر التربية ، وأن الإعداد للحياة الكاملة هو وظيفة التربية ، وأن العلم هو أساسها . له كتاب مشهور في التربية الفكرية والخلقية والجسدية » . ويعد من أقطاب العلم الحديث [عبد الدايم/ تاريخ التربية ٤٢٠ ـ ٤٣٤ ، رابوبرت/ مبادىء الفلسفة ١٦] .

obeikandl.com

والحربية . وعندما حلت الصناعة محل الحروب تحول الفكر من الموت إلى الحياة »[1] .

وقد صرح فولتير[2] بما للدين والإيمان بالله من أثر في منع الغش والحد من الجريمة ، وبين ضرورته لكل مجتمع ؛ فعندما سأله « بايل » : هل من الممكن لمجتمع من الملحدين أن يستمر؟ أجاب بقوله : « نعم إذا كان أبناء هذا المجتمع كلهم من الفلاسفة ، ولكن من النادر أن يكون كل الناس فلاسفة ، ولابد للبلد ليكون صالحاً أن يكون له دين . أريد من زوجتي وخياطي ومحامي أن يؤمنوا بالله ، وبذلك يقل غشهم وسرقاتهم لي . وإذا كان لا وجود لله يجب علينا أن نخترع إلهاً » .

ووجه إلى « هولباخ » في مقال له عن الله في القاموس الفلسفي قوله : « لقد قلت أنت نفسك إن الإيمان بالله قد ساعد في إبعاد بعض الناس عن ارتكاب الجرائم ، إن هذا وحده يكفيني . فإذا كان هذا الإيمان يمنع من وقوع عشرة اغتيالات وعشر وشايات فإنه يجعلني أتمسك بأن يؤمن كل العالم بهذا الدين »[3] .

كما رد عليه بأن عنوان كتابه : « نظام الطبيعة » يدل على عقل منظم مقدس هو الله[4] .

---

(١) قصة الفلسفة/ ول ديورانت ، ص ٤٨٢ـ٤٨٣ .

(٢) فولتير (١٦٩٤ـ ١٧٧٨): فيلسوف وشاعر فرنسي ، كتب روايات كثيرة ، وله شهرة فائقة في الأدب والروايات التمثيلية ، وكان لكتاباته أثر عظيم في أفكار الأوروبيين [رابوبرت/ مبادىء الفلسفة ص ٢٢٠] .

(٣) المصدر السابق ص ٣٠١ـ٣٠٢ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٩٩ ، أندريه كريسون : تيارات الفكر الفلسفي ترجمة نهاد رضا بيروت : منشورات عويدات ١٩٦٢ ص ١٥٥ـ١٥٩ .

وليس العمل بالتعاليم التي جاء بها الرسول مانعاً من مسايرة العصر والتقدم ، بل مانع من الزيغ والضلال والانحراف والفساد . واتباع الرسل يصون جهود الإنسان من التبعثر ، ويقيه شر التخبط بالسير على الطرق المعوجة ، فيوفر جهده ووقته لإنجاز ما يعود عليه بالنفع ، وهو مطمئن إلى حصوله على حقوقه ودرء الظلم ونشر العدل .

وليس الإيمان باليوم الآخر صارفاً للإنسان عن تحسين أحواله في الدنيا ، ولا يوجد تعارض بين العمل للآخرة والعمل لإصلاح الحياة الدنيا ، فطريقهما واحد ، والسعي لهما مشترك .

وليس الإيمان بالقدر سبباً لجعل الإنسان مستسلماً للمصادفات ، ولا يجعله ضعيفاً خاضعاً للأقوياء ، ولا لجعله مائماً حائراً كالريشة في مهب الرياح ، بل يجعله قوياً صامداً وشجاعاً صابراً ومطمئناً راضياً ، ينصر الحق ويقاوم الظلم ويعمل الخير .

وبذلك تكون العقيدة أكبر عامل في التربية الروحية ، وأهم مقوم في التربية ، ويكون من واجب المربين الاعتماد عليها في كل تربية هادفة وكل إصلاح منشود .

* * *

ثانياً : العبادات

العبادة هي طاعة الله تعالى والخضوع المطلق له ، وفعل ما يأمر به وترك ما ينهى عنه . وهي مظهر للعقيدة : فالصلاة تعبير عن الإيمان بأقوال وأفعال معينة ؛ والزكاة برهان على الإيمان بإنفاق المال ابتغاء مرضاة الله ، والصوم تعبير عن الإيمان بالامتناع عن المفطرات ، والحج عبادة بدنية ومالية ، وهو رحلة إلى الله وخروج من الديار ومفارقة للأهل وزهد في الدنيا وإقبال على الآخرة . وهذه العبادات تدل على وجود الإيمان في قلب من يقوم بها بشرط أن تؤدى بإخلاص لوجه الله تعالى ، أما إذا لم تصحبها النية الخالصة لله فتكون مجرد أعمال ظاهرية لا تنفع صاحبها شيئاً عند ربه ، ويكون مثلها مثل شجرة اجتثت من فوق الأرض ، لا تعطي شيئاً من الثمار ، وسرعان ما تعصف بها الريح .

وبالمقابل فإن العبادة تؤدي إلى ترسيخ العقيدة وزيادة الإيمان ، إذ أن الإيمان يكون فكرة ضعيفة باهتة مالم يدفع إلى العبادة ، فإذا فعلت العبادات قوي الإيمان واستقر في القلب ؛ ولذلك اقترن الإيمان بالعبادات في كثير من الآيات :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال : ٢ـ٣] .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ـ٤] .

والإنسان مفطور على العبادة ، ولهذا فإن المشركين الذين انحرفوا عن

عقيدة التوحيد توجهوا بالعبادة إلى الأصنام ، والدول التي تتنكر للدين والإيمان تفرض على رعاياها أعمالاً وطقوساً في مناسبات معينة وتجاه بعض الزعماء تكون شبيهة بالعبادة .

قال الفيلسوف جورج سانتيانا[1] : إن الإنسان روحاني بطبعه ، ويميل إلى العبادة ، ولا يمكن تحويله عن هذا الميل للعبادة[2] .

والتربية التي لا تقوم على العبادة تصطدم مع طبيعة الإنسان وتكوينه ، وتقتصر على إعداده ليكون منتجاً ومستهلكاً في الحياة دون اهتمام بنشأته ومصيره ، وبذلك تحط من شأنه وتجعله يعيش كالحيوان ويعمل كالآلات[3] :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾

[محمد : ١٢] .

آثار العبادات التربوية :

للعبادات آثار تربوية في غاية الأهمية : فهي تبعث على الاستقامة ، وتؤدي إلى تهذيب النفس ويقظة الضمير والصلاح في السر والعلانية ، وتجعل الإنسان معتدل المزاج قرير العين مطمئن القلب ، يحقق الغاية من

---

(١) جورج سانتيانا (١٨٦٣ـ١٩٥٣) : ولد في إسبانيا وذهب إلى الولايات المتحدة في العاشرة من عمره وتعلم في بوسطن وجامعة هارفارد ، كان شاكاً يقول إنه لا يمكن إقامة البرهان على وجود أي شيء ، ومع ذلك يؤكد أن لدينا معرفة يقينية ثابتة وضعية عن عالم الكليات ويسميها « ماهيات » أمضى السنوات الأخيرة من حياته في صومعة كاثوليكية في روما [ايرسون/ الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ترجمة فؤلد كامل وآخرين . . القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ص ١٧٨ـ١٧٩] .

(٢) قصة الفلسفة/ ول ديورانت ، ص : ٦٠٨ .

(٣) فلسفة التربية الإسلامية/ د . ماجد كيلاني ، ص ١٠٨ .

وجوده ، ويعيش في وئام وانسجام مع نفسه وأسرته ومجتمعه وأمته والكون كله .

وهي تبعث على الاستقامة لأنها تقوي الشعور بمراقبة الله تعالى حتى يصل العبد إلى درجة الإحسان التي أخبر عنها الرسول ﷺ بقوله : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] .

والإنسان الذي يوقن بأن عين الله لا تغفل عنه هو صالح في السر والعلانية ، يقوم بما أمر به ويترك ما نهي عنه ؛ وهذا هو الأساس في تقدم الأمم ورقي الشعوب .

كما أن العبادة تنشىء الإنسان المعتدل المتوازن في تصوره وسلوكه ، الذي يعطي كل جانب من جسمه وعقله وروحه حقه ، ويعمل لدنياه وآخرته ؛ وبذلك تنسجم علاقته بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس الآخرين ، كما يحصل الانسجام بينه وبين هذا الكون الذي يعيش فيه والذي لا يخرج على النواميس التي وضعها الله له :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١] .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [الحج : ١٨] .

وتسبيح الكائنات وسجودها لله إما أن يكون بكيفية مناسبة لها يعلمها

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وعمر بن الخطاب .

الخالق سبحانه وإن خفيت علينا ، أو يحمل على خضوعها لله وعدم امتناعها عن القيام بما خلقت لأجله .

وبذلك يكون الإنسان العاصي لله المستنكف عن عبادته شاذاً في هذا الكون ، وهذا ما يجعله على شقاق مع نفسه التي بين جنبيه ، وعلى شقاق مع الناس والأشياء كلها ، وأنى يجد السعادة من كانت هذه حاله ؟!

أما المؤمن المطيع لله فهو الذي يفوز برضاه ويسعد بجواره ، ويتلاءم مع مخلوقاته ، لأنه يحقق الغاية التي خلق لها ، ويحسن الاستفادة من الأشياء التي سخرت له .

ثم إن عبادة الله تلبي في الإنسان الحاجة إلى الخلود ، لأنه يتوجه بها إلى الحي الباقي ، ولأنها سبيل للسعادة الأبدية في الدار الآخرة .

ولكل من العبادات المفروضة علينا آثار تربوية خاصة بها نجملها فيما يلي :

١ـ الصلاة :

تعتبر الصلاة أعظم صلة للمؤمن بربه ، ولهذا أمر النبي ﷺ بها في أوائل ما أنزل عليه من القرآن الكريم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل : ١ـ٤] .

وأدرك المؤمنون أن الإيمان يقتضي إقامة الصلاة ، فكانوا يقومون الليل مع النبي ﷺ من قبل أن يؤمروا بذلك ، حتى نزلت الآية في الإشادة بهم والتخفيف عليهم :

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ

مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل : ٢٠] .

ثم فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء والمعراج لتكون معراجاً للمؤمن بروحه كلما وقف بين يدي ربه .

وبقدر ما للصلاة من أهمية فإن لها آثاراً تربوية عظيمة في النواحي الجسمية والخلقية والاجتماعية :

أ) **فمن الناحية الجسمية** : تتجلى فائدة الصلاة في جعل الجسم نظيفاً نشيطاً ، إذ أن الطهارة شرط لصحتها ، فتبقى ثياب المسلم طاهرة نظيفة ، وهو يحافظ على طهارة جسمه ، ويزيل ما يعلق عليه من النجاسات ، ويغسل الأعضاء والأطراف المكشوفة منه كل وضوء ، مما يقيه شر الجراثيم والأوساخ التي تعلق بالجلد .

والمضمضة والسواك وسيلتان لتنظيف الفم ووقاية الأسنان ، والاستنشاق والاستنثار يؤديان إلى طرح الأوساخ العالقة بالأنف والمحافظة على صحة جهاز التنفس ومنع الإصابة بالحميات الراشحة إلى حد كبير . وغسل الوجه يجعله في غاية النضارة والإشراق ، ويقي العيون مما يتراكم حولها من الأوساخ . والتخليل بين أصابع اليدين والقدمين يمنع العفونة وينشط الدورة الدموية .

والصلاة رياضة خفيفة مناسبة لكل الناس على اختلاف قدراتهم ، تؤدي إلى حركة معظم أعضاء الجسم ، وتجعل مفاصله لينة سهلة الحركة . ولولاها لتصلبت الأعضاء والمفاصل التي لا يحركها الإنسان أثناء قيامه بأعماله المعتادة . ثم إن كثيراً من الناس يقضون وقتاً طويلاً أثناء عملهم في حالة الوقوف أو الجلوس ، مما يعرقل رجوع الدم من الساقين إلى القلب ، ويعرضهم للإصابة بالدوالي ، ومما يلقي على

القلب ضغطاً مرتفعاً ليدفع الدم إلى الدماغ الذي يحتاج إلى الغذاء والأكسجين أكثر من سائر الأعضاء . وحين الركوع يصبح الرأس في مستوى القلب فيسهل وصول الدم إليه ، وحين السجود يصبح الساقان والقدمان في مستوى القلب ، فيسهل رجوع الدم منها . وهكذا تؤدي الصلاة إلى تنشيط الدورة الدموية والوقاية من الإصابة بتصلب المفاصل ودوالي الساقين . كما أن الاستيقاظ باكراً لصلاة الصبح يجعل الجسم نشيطاً قوياً ، ويخلصه من الفضلات المتراكمة أثناء النوم ، ويسمح بتنفس الهواء الصافي المنعش .

ب) **ومن الناحية الروحية والنفسية والخلقية** : تؤدي الصلاة إلى تكفير السيئات . قال النبي ﷺ « الصلوات الخمس كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر »[1] .

وهذا يؤدي إلى سمو الروح واطمئنان النفس لفوزها برضا الله وجنته . قال النبي ﷺ : « خمس صلوات كتبهن الله على العباد ، فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ، ومن لم يأتِ بهن فليس له عند الله عهد ، إن شاء عذبه ، وإن شاء أدخله الجنة »[2] .

وتؤدي الصلاة إلى تهذيب النفس وحسن الخلق والبعد عن الفواحش والمنكرات . وكيف يفعل الفواحش من يتضرع إلى ربه ويناجيه ويعلم أنه مطلع عليه ومراقبه . قال الله تعالى :

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة .

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث عبادة بن الصامت .

ثم إن الصلاة تعين على مجابهة الصعاب وتحمل المشاق . قال الله تعالى :

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] .

والصلاة تريح الإنسان مما يعانيه من هموم الحياة ، وتضع عن كاهله ما ينوء بحمله من الأثقال ، لأنه يفوض الأمر إلى الله ، ويستمد منه العون والتوفيق ، فيصبح قرير العين مسروراً . وهي تعين على تركيز الذهن ، لأن المصلي يصرف وساوس الشيطان عن نفسه ، ويبعد هموم الدنيا عن قلبه ، ويركز ذهنه على التفكير في معاني الآيات التي يقرؤها أو يسمعها من الإمام ، ويحصر نشاطه العقلي في مناجاة الله والتضرع إليه . وتركيز الذهن وحصر القوة العقلية في ناحية واحدة يؤدي إلى وضوحها وفهمها ، وهذا أهم ما يحتاج إليه الطلاب في مدارسهم والمخترعون في مخابرهم ، ودون ذلك لا يكون هناك إبداع ولا اختراع .

ويمكننا أن نضيف إلى هذه الناحية أيضاً أن الصلاة تعلم النظام وإتقان العمل ، فحين يحافظ المسلم على الصلوات في أوقاتها ، ويقيم الصلاة دون إخلال بشيء من أركانها وسننها فإنه يتعلم أن يقوم بواجباته كلها في الأوقات المحددة لها وعلى أحسن وجه . ولهذا الأثر أهميته في إعداد النفوس وبناء الحضارة الإنسانية .

ج) **وتتجلى آثار الصلاة الاجتماعية** حين يجتمع المسلمون في بيوت الله ، ويجلس الفقير بجانب الغني والضعيف بجانب القوي والوضيع بجانب الشريف ، ويقفون في صفوف متراصة ، ويتابعون الإمام في القيام والركوع والسجود والجلوس كجسم واحد ، فتتحقق بينهم المساواة ، وتنشأ بينهم الألفة ، ويتعرف بعضهم على بعض ويتعاونون على ما فيه صلاحهم .

والإنسان يميل إلى الاجتماع بغيره ، والصلاة تمكنه من أن يجتمع بأبناء حيه أو بلدته عدة مرات في اليوم ، فيعرف بعضهم بعضاً ، ويتفقدون الغائب منهم ، فيعودونه إن كان مريضاً ، ويعينونه إن كان محتاجاً ، ويهنئونه إن أصابه خير ويواسونه إن أصابه شر .

وبذلك تلبي العبادة في الإنسان الحاجة إلى الانتماء والحاجة إلى الحب والاحترام ، فيكون على صلة دائمة بربه ومجتمعه ، ويلتقي مرات كل يوم بالذين يجتمعون على محبة الله ، وتنشأ فيما بينهم علاقات الحب والاحترام[1] .

وفي بيوت الله يلتقي الأمير بالرعية ، وهو في الغالب يؤمهم في الصلاة ، وهم يقتدون به ، فيتعلمون طاعته والاستماع إليه ، وينصحونه ولا يبخلون عنه بالرأي السديد ، ويرفعون إليه مظالمهم ، وبذلك ينتشر العدل ويقضى على الظلم ، وتنهض البلاد .

٢ـ الزكاة :

جعل الله بعض الناس قادرين وبعضهم ضعفاء ، وبعضهم أغنياء وبعضهم فقراء ليمتحنهم ؛ فهو يمتحن الغني هل يشكر ويعطي الفقير حقه أم لا ، ويمتحن الفقير هل يرضى بما قسم له ويتصف بالعفة أم يسخط ويحسد الغني . قال سبحانه :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

ومما يدل على أهمية الزكاة أنها اقترنت بالصلاة في كثير من الآيات .

---

(١) فلسفة التربية الإسلامية/ د . ماجد كيلاني ، ص ٩٧ .

قال الله تعالى في صفات المتقين :

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : ٣] .

وقال سبحانه في وصف المؤمنين :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] .

وقال في قتال المشركين :

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٥] .

وقال آمراً بها :

﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٨] .

وقال آمراً بالإخلاص في العبادة :

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] .

وقال مبيناً ثواب الصالحين :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٧] .

وللزكاة آثار تربوية كبيرة من الناحية النفسية والاجتماعية :

أ) فهي تستأصل الشح من نفس الغني وتجعله كريماً سخياً قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج : ١٩ـ٢٥] .

ب) وهي تستأصل الحسد والطمع من نفس الفقير ، وتجعله عفيفاً راضياً ، فالفقير يسخط حين يرى نفسه محروماً ويرى غيره موسعاً عليه في الرزق ، ويتمنى زوال نعمة الغني ليصير مثله ، أما حين يرى الغني يعطيه جزءاً من ماله ، فإنه يقنع بما رزقه الله ، ويصبح عفيف النفس .

ج) والزكاة كفارة للذنوب ، تطهر النفوس من أدرانها ، وتسمو بها في مدارج الكمال الإنساني ، قال الله تعالى :

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة : ١٠٣] .

د) وهي تجعل المجتمع متآلفاً متعاوناً ، إذ ينتهي النزاع بين الفقراء والأغنياء ، ويصبح الغني يجود على الفقير دون أن يستغله ، والفقير يعين الغني بدلاً من أن يحاول نهب ماله ، ويصبح الجميع إخوة متحابين .

هـ) وهي أهم وسيلة في تحقيق التكافل الاجتماعي ، فلا يبقى جائع لا يجد الطعام ، ولا مريض لا يجد العلاج ، ولا عارٍ لايجد اللباس ، ولا أحد لا يجد المسكن اللائق به . قال النبي ﷺ : « إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم ما يسع فقراءهم ، فإن جاعوا أو عروا فيما يصنع أغنياؤهم . ألا وإن الله محاسبهم حساباً شديداً ومعذبهم عذاباً أليماً »(١) .

و) وهي فوق ذلك تصون المال وتؤدي إلى زيادته والبركة فيه ؛ فإذا احتاج الغني إلى مساعدة الفقير لجمع محصوله أو لدرء الفيضان والأخطار عنه ، فلا يقف شامتاً به ، بل يندفع لتقديم ما يحتاجه من عون ، مادام

---

(١) رواه الطبراني ورواه ابن حزم موقوفاً على علي رضي الله عنه .

يعلم أن له حصة في ماله . ولا يسعى الفقير إلى سرقة مال الغني أو أخذه دون حق ، وإنما يحافظ عليه ويصونه من التلف ، ويرده إليه إن فقده . قال النبي ﷺ : « حصنوا أموالكم بالزكاة »[1] .

وقد وعد الله المتصدقين بالتعويض عليهم فقال :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] .

٣ـ الصوم :

لقد فرض صيام رمضان في السنة الثانية للهجرة بعد أن أصبح للمسلمين مجتمع يحتاج إلى تحقيق التكافل الاجتماعي فيه . وخص هذا الشهر بهذا الفضل لابتداء نزول القرآن فيه :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

والصوم هو العبادة التي لا يدخلها الرياء ، لأنه لا يعلم حقيقة المرء هل هو صائم أم لا إلا علاّم الغيوب ؛ وهذا ما يجعل المسلم نقي السريرة مخلصاً في عمله ، لا يظهر خلاف ما فيه . ولهذا وعد الله الصائمين بجزيل الثواب ، فقال سبحانه في الحديث القدسي : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي »[2] .

---

(١) رواه الطبراني وأبو نعيم والعسكري والقضاعي عن ابن مسعود مرفوعاً وله شواهد كثيرة عن عدد من الصحابة : كشف الخفاء ج١ ص ٣٦١ .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ويرمز الصوم إلى ترك المحرمات ، وله آثار جسيمة في النواحي الجسمية والنفسية والخلقية والاجتماعية :

أ) **الآثار الجسمية** : يؤدي الصوم إلى راحة المعدة وجهاز الهضم بعض الوقت كل يوم ، وبذلك تطرح ما فيها من بقايا الطعام المتراكمة التي تسبب عسر الهضم والتي تضر بالجسم ، كما يخلص الدم مما ينحل فيه من الدهون التي تعوق جريانه ، وتترسب على جدران الأوعية الدموية فتسبب تصلبها . ويخلص الجسم مما يتكدس فيه من الشحوم التي تؤدي إلى زيادة الوزن ، وتجعل الرجلين تنوءان بحمل الجسم ، والقلب ينوء بضخ الدم إلى الأعضاء . فالصوم يؤدي إذاً إلى حفظ الصحة ، ويجعل الجسم قوياً سليماً . وإلى هذا يشير الحديث الشريف : « صوموا تصحوا »[1] .

ب) **الآثار النفسية والخلقية** : إن الصوم أفضل وسيلة لتهذيب النفس وتحسين الخلق ، لأنه يجعل الإنسان في عبادة مستمرة ، ويؤدي إلى إضعاف الشهوات واجتناب المحرمات ، لأن الذي يمتنع عن الطعام والشراب وهما في متناول يده لا يأكل أموال الناس بالباطل ولا يعتدي عليهم . ويمنع الصوم من اللغو في الكلام ومن البذاءة في اللسان . قال النبي ﷺ : « الصيام جنة ، فلا يرفث ولا يجهل . وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم ، إني صائم »[2] .

أي أن صومه يمنعه من الشتم والخصام ويجنبه الشرور والآثام . كما يمنع الصوم من الوقوع في الفواحش ويعين على العفة ؛ ولهذا أوصى الرسول ﷺ الشباب الذين لا يجدون الزواج بالصوم ، وبين أنه يقيهم من

---

(١) رواه أحمد عن أبي هريرة ، والطبراني وأبو نعيم : كشف الخفاء .
(٢) أخرجاه عن أبي هريرة .

الانزلاق في الحرام فقال : « يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له به وجاء »[1] .

والصوم وسيلة تجعل الإنسان تقياً يفعل ما يأمره به الله ، ويترك ما ينهاه عنه ، ويخشاه ويطلب مرضاته . ولهذا فرضه الله على الأمم كلها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

والصوم يجعل النفس ، رقيقة مهذبة لا تأمر بفعل شيء غير مشروع ؛ ولهذا جعل الصوم كفارة لكثير من الذنوب كالقتل خطأ والظهار والحنث في اليمين والصيد أثناء الإحرام .

أما الذي لا ينتهي عن الكذب والغيبة والنميمة وأكل الحرام والعدوان على الناس فلا يعد صائماً بالمعنى الحقيقي ولا يؤجر على صومه . قال النبي ﷺ : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش »[2] .

ثم إن الصوم يؤدي إلى سمو الإنسان وترفعه فوق الشهوات والحاجات المادية ، ويجعله شبيهاً بالملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون ولا يعصون الله في شيء .

ويعلم الصوم الصبر والنظام ، فالذي يصبر على الجوع والعطش يصبر على الصعاب ويتحمل المشاق . والذي لا يتناول الطعام والشراب في غير وقت الإفطار يتعلم أن يقوم بأعماله كلها في حينها .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة .

ويؤدي الصوم إلى قوة الإرادة ، فالذي يقاوم دوافعه النفسية إلى الطعام والشراب والملذات يصبح قوي الإرادة ، يملك نفسه ويمنعها من تجاوز حدود الشرع .

ويغير الصوم من عادات الإنسان في طعامه وشرابه ويقظته . وكثير من الناس يصبحون أسرى لعاداتهم دون أن تكون هذه العادات ضرورية لحياتهم : أما الصائم فيتحرر من الخضوع لتلك العادات ، ويعيش حراً طليقاً .

ج) **الآثار الاجتماعية** : يجعل الصوم المسلمين كأسرة واحدة ، يجلسون إلى الطعام في وقت معين ، ويستوي غنيهم وفقيرهم في الامتناع عن المفطرات طيلة النهار . كما يدفع الصوم إلى الإحسان ، لأن الإنسان حين يكون شبعان لا يحس بجوع الآخرين ، أما حين يشعر بالجوع فإنه يتذكر الفقراء الذين لا يجدون قوت يومهم ، ويندفع إلى قضاء حاجاتهم والإحسان إليهم ، وبذلك يكون الصوم وسيلة لتحقيق التكافل الاجتماعي . قال النبي ﷺ :

« ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم »[1] .

٤ـ الحج :

لقد تأخر فرض الحج إلى السنة التاسعة للهجرة بعد أن تم تطهير البيت الحرام من الأوثان وتطهير جزيرة العرب من المشركين ، ودخلت قبائل العرب في الإسلام ، وأصبحوا بحاجة إلى مؤتمر يجمعهم .

ولما كانت هذه العبادة تحتاج إلى سفر طويل ونفقات كثيرة فإنها لم

---

(١) رواه الطبراني والبزار عن أنس ، وإسناده حسن : الترغيب والترهيب .

تفرض على غير القادرين عليها . قال الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

وللحج أهم الآثار التربوية في النواحي الروحية والخلقية والاجتماعية :

أ) فهو كفارة للذنوب : قال رسول الله ﷺ : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »(١) .

وحين يضع المسلم ذنوبه عن كاهله فإنه يستأنف حياة نظيفة لا يدنسها بشيء من الخطايا ، فتسمو نفسه درجات في سلم الكمال .

ب) ويؤدي الحج إلى ترسيخ الإيمان ، وذلك بالطواف بأول بيت وضع لعبادة الله في الأرض . قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] .

وحين يرى البقاع التي نشأ فيها النبي ﷺ فإنه يقبل على دراسة سيرته ، فيتصف بفضائله ويتخلق بأخلاقه ، وحين يريد الإحرام يخلع ثيابه ويرتدي ثوبين غير مخيطين ، فيتصور نفسه حين يموت ويدرج في أكفانه ، ويزهد في الدنيا ويقبل على طاعة ربه .

وحين يسعى بين الصفا والمروة يتذكر أم إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهي تبحث عن الماء لتسقيه بعد أن كاد الظمأ يقتله ، فصعدت الصفا ونظرت حولها فلم تجد ماء ، ثم سعت إلى المروة ونظرت فلم تجد ماء ، فعاودت الكرة سبع مرات حتى تفجر الماء تحت قدميه ؛ فيوقن بفضل الله ورحمته ، وأنه لا يتخلى عن عباده المؤمنين بل يرعاهم ويكلؤهم

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة .

بفضله . وفي يوم عرفة يغدو الحجاج إلى عرفات ليقفوا على ذلك الصعيد الطاهر ، فيتصورون يوم الحشر حين يقوم الناس للحساب والجزاء ، وهذا ما يجعلهم يحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، ويقضون عمرهم في الطاعات وفعل الخيرات ، ويترفعون عن الدنايا ، ويبتعدون عن الأذى والإضرار بالناس .

وفي منى يتذكر الحاج تصميم إبراهيم على ذبح ابنه امتثالاً لرؤياه في نومه :

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] .

فتهون عليه التضحية بماله فينفقه في سبيل الله ، ويتصدق على المحتاجين ، ويذبح الأضاحي ليطعم الجائعين . ويصبح الولد باراً بوالده ومطيعاً له في أصعب الأحوال وأشق الأعمال .

ويرمز رمي الجمار إلى القضاء على الشر ودحر الشيطان ، إذ ظهر لإبراهيم ـ عليه السلام ـ حين ذهب بابنه ليذبحه ، وحاول أن يثنيه عن عزيمته ، فرماه بحصيات فولى مدبراً . ولا زالت الأماكن الثلاثة التي ظهر فيها ترمي بالجمار ليكون ذلك تصميماً على مقاومة الشر واستئصال الفساد .

ج) ويتعرض الحاج للمشاق في طريقه فيتعلم الصبر . ويحرم عليه أثناء الإحرام حلق الشعر وقلم الأظافر والطيب وصيد البر . فيتعلم الزهد والعفة ، وينقطع للعبادة والتلبية . كما يحرم عليه الكلام البذيء والتسبب في إيذاء الناس حتى بالجدال . قال الله تعالى :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وهذا يعلمه الحلم ، ويعوده على طيب الكلام ومحاسن الأخلاق .

د) وتتجلى الآثار الاجتماعية في اجتماع أكبر عدد من المسلمين في مكان واحد ، فتمحى الفوارق التي بينهم ، ويتساوى الغني والفقير والشريف والوضيع والأمير والحقير . ويظهر الجميع بأبسط مظهر وأبعده عن التكلف والاختيال ، ثم يطوفون حول الكعبة باتجاه واحد ، ويتجهون إليها في صلاتهم ؛ فيعلمون أنهم أبناء أمة واحدة ، وأنه لا يجوز أن يبقوا متفرقين . قال الله سبحانه :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

والقصد من وقوف الحجاج على صعيد واحد في يوم عرفة أن يشعروا بالرابطة التي تجمعهم ، وأن يتعاونوا فيما بينهم ، ويعملوا على مقاومة الطغيان ونشر الإسلام والنهوض بالمسلمين ، كما أن اجتماعهم يمكنهم من الاطلاع على ما توصل إليه العلماء والمفكرون وعلى الأحداث التي وقعت في الشرق والغرب ، ولهذا أثره في تقدم العلوم وفي التخطيط الشامل للقضاء على التخلف والنهوض بالأمة .

ولقد أدرك أعداء المسلمين ما للحج من أثر في وحدتهم وتماسكهم وتعارفهم وتقدمهم . يقول « بول شمتز » :

« إن اتجاه المسلمين نحو مكة عامل من أهم العوامل في تقوية وحدة الاتجاه الداخلي بين المسلمين ، وأسلوب يضفي على جميع نظم الحياة في المجتمع الإسلامي طابع الوحدة وصفة التماسك . يتوجه المسلمون كل سنة نحو مكة فتتحد خطاهم نحو هدف واحد وأفكارهم إلى غاية واحدة . وهناك في مكة تبسط حالة العالم الإسلامي ، ويتصاعد منها أنين الأفكار المكلومة ممزوجاً بوحدة الشعور بضرورة الكفاح سوياً والسير معاً على طريق النضال . ويتعمق هذا الشعور في نفس الحجاج ويحملونه

معهم عائدين إلى الأقاليم البعيدة المكلومة في العالم الإسلامي .

هنا في مكة يجتمع المسلمون من كل أنحاء العالم مرة في السنة أثناء الحج الأكبر ، يلتقون مع بعضهم بعد أن يطرحوا عنهم كل أثر أجنبي خارج المنطقة المضروبة حول مكة ، ينسون قومياتهم وأوطانهم ، ويتذكرون فقط حقيقة واحدة : أخوة في الله ، تجمعهم عقيدة واحدة وكتاب واحد ، ليس للفوارق الإقليمية مكان بينهم ، وهم يد على من سواهم .

ومن الطبيعي كذلك أن مكة مكان تلتقي فيه الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي ، ويحدث فيه التعارف بين القادة من كل الأقطار الإسلامية ، تتناول أحاديثهم شؤوناً إسلامية ووسائل اقتصادية ، فتتضح لهم معالم الطريق ، وترسم أمامهم الخطط التي تأخذ طريقها إلى التنفيذ في المقابلات السياسية التي تعقد في مكان آخر غير مكة . وهكذا تحمل لقاءات مكة التي هي في أصلها اجتماع ديني ثماراً تمد العاملين في مناطق الحكم والتوجيه بغذاء ديني يطبعهم بالطابع الإسلامي . . لم يزل [وطن الإسلام الأول] مكاناً تتفاعل فيه الأفكار فتنتج الوعي والإدراك بتبعيتهم جميعاً للإسلام ، فينصرفون إلى أوطانهم عاقدي العزم على مساندة بعضهم في جميع شؤون الحياة »[1] .

وهكذا يبدو أن العبادة ليست مجرد طقوس يقوم بها المرء ، وليست صلة خاصة بين العبد وربه تتم في معزل عن مسرح الحياة ، وإنما هي وسيلة فعالة لإصلاح النفوس وجعلها تشعر بالبهجة والسعادة في الدنيا وتفوز بالجنة في الآخرة ، ولا يمكن للتربية أن تكون متكاملة وأن تؤتي

---

(١) الإسلام قوة الغد العالمية/ بول شمتز ص ٧٩ـ٨٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ـ١٥٥ .

ثمارها مالم تعتمد على العبادة في المقام الأول بعد الاعتماد على الإيمان .

والعبادة خير سبيل للمحافظة على الصحة وتحمل أعباء الحياة ، ومنع القلق واليأس . قال « ديل كارنيجي » بعد أن استعرض إحصاءات بعدد حوادث الانتحار والمصابين بالجنون في أمريكا : « ومعظم حوادث الانتحار ، وكثير من حالات الجنون على الأرجح يمكن أن يقطع دابرها إذا أصاب هؤلاء الناس شيئاً من الأمان والاطمئنان وسكينة النفس التي يجلبها الدين وتجلبها الصلاة »[1] .

ويقول مبيناً أثر الالتجاء إلى الله في تجنب الإصابة بالأمراض النفسية والعقلية : « ربما كان من المحتمل إنقاذ آلاف الناس المعذبين الذين يتصايحون في هذه اللحظة في مستشفيات الأمراض العقلية لو أنهم طلبوا العون من العناية الإلهية بدلاً من أن يخوضوا معارك الحياة بلا سند ولا نصير .

حين يستنفد خطب كل قوانا ، أو تسلبنا كارثة كل إرادة غالباً ما نتجه في غمرة اليأس إلى الله ، فلماذا ـ بالله ـ ننتظر حتى يتولانا اليّأس؟ لماذا لا نجدد قوانا كل يوم بالصلوات والحمد والدعاء »؟[2] .

* * *

(١) دع القلق وابدأ الحياة . مصدر سابق ص ٢٩٢ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٩٢ـ٢٩٣ .

ثالثاً : الأخلاق

تعد الأخلاق أبرز مقومات التربية ، بل هي مظهر التربية وثمرتها المباشرة . وبقدر ماتكون أخلاق الإنسان حسنة فإنها تدل على التربية الرفيعة التي حصل عليها ، أما إذا كانت أخلاقه سيئة فإنها تدل على فشل تربيته ، أو أنه لم ينل منها ما يجعله جديراً بالاحترام ؛ ولهذا فقد جعل الإمام الغزالي التحلي بالأخلاق الحميدة والتخلي عن الأخلاق السيئة هدفاً للتربية فقال : « التربية إخراج الأخلاق السيئة وغرس الأخلاق الحسنة »[١] .

وقال كانت : تهدف التربية إلى التهذيب وتحسين الأخلاق ثم تعليم العلم . . والمقصد الأسمى للتعليم هو تكوين الأخلاق[٢] .

والأخلاق ثمرة لكل من العقيدة والعبادة ، فالعقيدة السليمة الراسخة تثمر الأخلاق الحميدة ، كما أن الأخلاق الفاضلة تدل على كمال الإيمان . ودليل ذلك قول الرسول ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »[٣] .

وكذلك فإن العبادة الصحيحة التي يقوم بها المسلم تجعل أخلاقه حميدة كما بينا في البحث السابق . وقد ربط الرسول ﷺ بين العقيدة والعبادة من جهة وبين الأخلاق من جهة ثانية بقوله : « المسلم من سلم

---

(١) د . حسان : الفكر التربوي العربي الإسلامي ، ص ٧٩٣ .

(٢) كانت/ التربية : ترجمة طنطاوي جوهري ص ١١ ، ٦١ .

(٣) رواه أبو داود والترمذي والنسائي ، واللفظ له والحاكم عن أبي هريرة ورواته ثقات .

الناس من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم »[1] .

أما إذا ادعى شخص الإيمان ، ورآه الناس يقوم بفروض الإسلام ، وكانت معاملته سيئة وأخلاقه قبيحة ، فيكون منافقاً يظهر خلاف الحقيقة ، وتكون عبادته مجرد طقوس غير مقبولة في ميزان الحق . وقد ذكر لرسول الله ﷺ امرأة كثيرة الصوم والصلاة ، ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها فقال : « هي في النار » . (أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة) .

وقال ابن القيم[2] : « الدين كله خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين »[3] .

والأخلاق تستمد من الشرع ، فما حسّنه الشرع كان حسناً وفضيلة ، وما قبحه كان قبيحاً ورذيلة ، وليست رد فعل لغريزة في الإنسان أو انعكاساً لسلطة المجتمع ، وليست من وضع الطبقة المستغلة فيه . ولهذا فإن الأخلاق ثابتة وليست متغيرة من عصر إلى عصر ، فالحق لا يصبح باطلاً والفضيلة لا تنقلب رذيلة . ومانشاهده من اختلاف بين المفاهيم الخلقية عند الأمم المختلفة وفي العصور المتعاقبة يرجع إلى اختلاف الناس في معتقداتهم والنظم التي يخضعون لها . وليس كل ما تعارفه

---

(١) رواه النسائي من حديث أبي هريرة .

(٢) ابن قيم الجوزية (٦٩١ـ٧٥١هـ ، ١٢٩٢ـ١٣٥٠م) : أبو عبد الله ، محمد بن أبي بكر بن مدير مدرسة الجوزية بدمشق . ولد وتوفي فيها ، وهو فقيه حنبلي تتلمذ على ابن تيمية . له :أعلام الموقعين ، وزاد المعاد ، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، وبدائع الفوائد ، وطريق السعادتين ، وشرح منازل السائرين ، وحادي الأرواح ، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، وغيرها [العوا/ التجربة الفلسفية ص ٧٨٩ ، الزركلي/ الأعلام ج٦ ص ٢٨٠] .

(٣) ابن القيم/ مدارج السالكين . ج٢ ص ٣٤٨ .

الناس في أي عصر أو مصر يكون حقاً في ميزان العدل الإلهي .

ولقد جعل الرسول ﷺ الدعوة إلى مكارم الأخلاق هدفاً للأنبياء جميعاً فقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[1] .

وهذا يدل على اتفاق الرسل على المبادىء الخلقية بالرغم من اختلاف الأمم التي أرسلوا إليها وتعدد العصور التي بعثوا فيها .

وليس أدل على مكانة ذي الخلق القويم من جعله محبوباً للنبي ﷺ قريباً من مجلسه يوم القيامة : « إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً . وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون . قالوا : يارسول الله! قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال : « المتكبرون »[2] .

أما ذو الخلق السيىء فهو شر الناس . قال الرسول ﷺ : « إن من شر الناس من اتقاه الناس لشره »[3] .

ولابد من أن يكون المربي والمصلح حسن الخلق لكي يحبه الناس ويستجيبوا له . قال الله تعالى مخاطباً النبي ﷺ :

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وإليك أهم الفضائل الخلقية التي أمر بها الله تعالى : الصدق والوفاء والأمانة والصبر والعفو والحلم ، والرذائل التي نهى عنها : الغيبة والنميمة والسخرية والكبر .

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم والبيهقي من حديث أبي هريرة . وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم .

(٢) رواه الترمذي عن جابر بسند حسن .

(٣) متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها .

١ـ الصدق :

يؤدي الصدق إلى الثقة والتعاون بين الناس ، وقد أمر الله به :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] .

وحذر من الكذب ، وأخبر أنه من صفات الكافرين :

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل : ١٠٥] .

ويجب تربية الطفل على الصدق منذ نعومة أظفاره . وقد حذر النبي ﷺ من الكذب على الطفل لكيلا ينشأ على هذه الصفة الممقوتة :

قال عبد الله بن عامر : جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله : تعال حتى أعطيك ، فقال : « وما أردت أن تعطيه؟ قالت : تمراً فقال : أما إنك لو لم تفعلي لكتب عليك كذبة »(١) .

وتوعد الله الكاذبين بأن يضلهم ويعذبهم :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر : ٣] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [المؤمن : ٢٨] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[النحل : ١١٦ـ١١٧] .

ومع أن الكذب مفسدة كبيرة فإنه يباح لغايات نبيلة لا تتحقق دونه كخداع العدو وحقن دماء المسلمين وإصلاح ذات البين والوفاق بين الزوجين :

---

(١) رواه أبو داود والبيهقي .

عن أم كلثوم بنت عقبة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمي خيراً » قالت : « ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذب إلا في ثلاث :

الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها »[1] .

وبذلك نرى مرونة القواعد الخلقية في الإسلام وموافقتها لكل الأحوال .

١ـ الوفاء بالعهد :

يعتبر الوفاء بالعهد نوعاً من الصدق ، لأن المعاهد ملتزم بفعل شيء فإذا أنجز ما وعد به كان وفياً صادقاً . ويؤدي الوفاء بالعهود إلى الثقة والمحافظة على الوقت وتقدم المجتمع وازدهاره .

وقد أمر الله بالوفاء بالعهد ، وبين أنه سيسأل كل معاهد عن عهده فقال :

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

وحذر من مخالفة العهود ومن نقض المواثيق فقال :

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل : ٩١] .

ونهى عن نقض العهد بسبب الطمع في عرض عاجل :

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٩٥] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي .

وجعل نقض العهد من صفات الكافرين :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ [الأنفال : ٥٥ـ٥٦] .

وعد الوفاء بالعهد بين صفات العقلاء المؤمنين :

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد : ١٩ـ٢٠] .

وذكره مع وجوه الخير وأنواع البر :

﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وأمر النبي ﷺ بتنشئة الأطفال على هذا الخلق الحميد فقال : « أحبوا الصبيان وارحموهم ، وإذا وعدتموهم شيئاً ففوا لهم ، فإنهم لا يرون إلا أنكم ترزقونهم »(١) .

وكما أمر الله بالوفاء بالعهد بين الأفراد فإنه أمر بالوفاء بالمعاهدات والمواثيق التي تعقد بين الدول ، حتى إنه منع نصرة المؤمنين الذين يقع عليهم عدوان في بلد غير إسلامي إذا أدى نصرهم إلى الإخلال بالمعاهدات التي التزم بها المسلمون فقال :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

أما إذا ظهر للمسلمين من الذين عاهدوهم تبييت الغدر والخيانة فلا يجوز أن يقابلوهم بمثل ذلك ، وإنما يعلنون إنهاء المعاهدة بصراحة دون مواربة :

---

(١) رواه أبو عبد الله : الوسائل ١٥/ ٢٠١ : الطفل : ٣٢٣ .

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

[الأنفال : ٥٨] .

وعندئذ يجوز للمؤمنين أن يقاتلوا الكافرين الذين نقضوا المعاهدة :

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة : ١٢] .

٣ـ الأمانة :

تعد الأمانة من مستلزمات الإيمان ، كما يعد الوفاء بالعهد دليلاً على صحة العقيدة ، قال الرسول ﷺ « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له »(١) .

وقد ذكر هذان الخلقان بين صفات المؤمنين في القرآن الكريم : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨] .

ولا تقتصر الأمانة على حفظ الوديعة وإعادتها إلى صاحبها بل تشمل كل ما كلف به الإنسان من الواجبات وما عهد إليه من المسؤوليات ، ومن ذلك أن يحفظ أعضاءه وحواسه ، وأن يستعملها في طاعة الله ، وأن يقوم بالعبادات المفروضة على أحسن وجه ، وأن يخلص في عمله ويتقنه ، وأن يكتم سر صاحبه ولا يفشيه ، ولذلك لم توكل الأمانة لغير الإنسان العاقل . قال الله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

وأعظم الأمانات ما كان متعلقاً بالعقيدة والعبادة ، وما يترتب على

---

(١) رواه أبو يعلى والبيهقي عن أنس : كشف الخفاء ٢/ ٣٤٩ .

تلاوة القرآن الكريم وفهمه وامتثال أحكامه ، وطاعة الرسول ﷺ والتخلق بأخلاقه والاقتداء به . قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

[الأنفال : ٢٧] .

ومنها ما يتعلق بالمعاملات بين الناس وحفظ حقوقهم ووفاء ديونهم . قال الله تعالى :

﴿ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ ﴾

[البقرة : ٢٨٣] .

٤ـ الحلم والعفو :

الحلم هو ضبط النفس وكفها عن الانفعال عند الغضب .

وهو يدل على قوة الإرادة ومضاء العزيمة . قال رسول الله ﷺ : «ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[1] .

والعفو هو الصفح عن المسيء ، والتجاوز عن المعتدي . وقد أمر الله به فقال : ﴿ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] .

وجعله من صفات العقلاء الذين يفوزون بجنات الخلود :

﴿ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٢] .

كما أثنى الله سبحانه وتعالى على المتصفين بالعفو والحلم ، وأخبر عن حبه لهم فقال :

﴿ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

[آل عمران : ١٣٤] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث أبي هريرة .

obeikandl.com

وأشار إلى مغفرته لذنوبهم ورحمته بهم فقال :

﴿ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٤] .

وهو لا يضيع أجرهم ولا يحب من ظلمهم :

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

ويؤدي الحلم والعفو عن المسيء ، ومقابلته بالإحسان إلى طرح ما في صدره من عداوة وجعله صديقاً مخلصاً :

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

وهكذا شملت التربية في القرآن مجال الانفعالات والعواطف كما شملت مجال الأبدان والأرواح .

٥ـ الصبر :

لابد من أن يتصف الإنسان بالصبر ليتغلب على الصعاب ويجتاز العقبات التي يلاقيها في طريقه . ولتحقق التربية أهدافها يجب أن يصبر المربي على ما يجده في طلابه من العنت والعوج ، ويصبر الطالب ليدرك مغزى التربية ويتأثر بها ويفهم دروسه ويعمل بها ، ويكون الصبر في منع النفس من الانزلاق إلى حمأة الشهوات المحرمة ، والوقوف بها في دائرة الطيبات المباحة ، وكفها عن تعدي حدود الله . كما يكون في ترويض النفس على القيام بالواجبات والتكاليف الموكلة إليها ، وفي تحمل الأعباء وبذل الجهود اللازمة للقيام بها . وبذلك يشمل الصبر القيام بالصلاة وغيرها من العبادات . قال الله تعالى :

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [هود : ١١٤ـ١١٥] .

وقال سبحانه : ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ﴾ [مريم : ٦٥] .

ويشمل معاشرة الأهل بالمعروف وتعويدهم على القيام بالفروض : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه : ١٣٢] .

وأحوج الناس إلى الصبر هم المصلحون والدعاة إلى الخير والمجاهدون في سبيل الله . قال تعالى في وصية لقمان لابنه : ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٧] .

ويعد الصبر والعفو من الأمور العظيمة والأخلاق الكريمة ، قال الله تعالى :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] .

ويرفع الصبر من شأن الدعاة ، ويجعلهم أئمة يتبعون ويقتدى بهم . قال الله سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

والله ـ تعالى ـ يمتحن الناس بالأعداء والمصائب والأمراض ونقص الأموال ليثيب الصابرين ويزيد في حسناتهم . قال سبحانه :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥ـ١٥٧] .

فإذا لم يكن المرء مؤمناً صالحاً ، وإذا لم يتبع الحق ويصبر عليه ويدعو إليه فإنه يخسر الدنيا والآخرة :

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر] .

أما الصابرون فإن الله وعدهم بالعون والنصر وحسن الجزاء والجنة :

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٢] .

وبذلك نرى أن الصبر في الإسلام ليس استسلاماً وخنوعاً ، وإنما هو إرادة وعزيمة وثبات وصمود وسلاح لا يستغني عنه الإنسان في رحلة الحياة ، وأن التربية المستمدة من القرآن الكريم تزود الإنسان بعدة الكفاح المعنوية ، وتجعله قوي الإرادة شديد المراس .

٦ـ الكبر :

الكبر من الأخلاق السيئة التي تحول دون الحصول على العلم ، وتمنع من تلقي التربية الرفيعة ، وتجعل الإنسان بعيداً عن الله . قال سبحانه :

﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل : ٢٣] .

وقد نهى الله جل جلاله عن الكبر والاختيال والزهو بالنفس فقال :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾

[الإسراء : ٣٧] .

وعاقبة المستكبرين الهوان والعذاب في الدار الآخرة :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] .

﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [غافر : ٧٦] .

أما التواضع فهو الخلق الحسن الذي يدل على التربية الرفيعة والأدب الجم ، ويمكن المتصف به من نيل العلم والحصول على المعرفة . وقد أمر الله نبيه بالتواضع لأصحابه فقال :

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

وينبغي على المعلم أن يتواضع للمتعلمين ، وعلى المتعلم أن يعرف للمعلم حقه ولا ينسى فضله ، ويتواضع له ، ويعلم أن ذله لشيخه عز ، وخضوعه له فخر والتشمير في خدمته شرف . قال النبي ﷺ : « تعلموا العلم ، وتعلموا له السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ولمن تعلمونه ، ولا تكونوا جبابرة العلماء »[1] .

٧ـ السخرية :

والسخرية أيضاً من الأخلاق السيئة ، وقد نهى الله ـ عز وجل ـ عن احتقار الناس والاستهزاء بهم والحط من شأنهم والطعن في أعراضهم فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] .

---

(١) رواه ابن عبد البر من حديث أبي سعيد الخدري ، وروي موقوفاً على عمر وعلي رضي الله عنهما : مختصر جامع بيان العلم : ٦٣ ، ٥٤ .

وقد توعد الله كل من يطعن في الناس ويهينهم فقال :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة : ١] .

والهمز هو الطعن بالإشارة والحركة ، واللمز هو ذكر العيوب والطعن بالقول .

٨ـ الغيبة والنميمة :

الغيبة هي ذكر عيوب الآخرين في غيابهم ، والانتقاص من أحدهم في بدنه أو نسبه أو خلقه أو فعله ، وقد نفر الله من الغيبة وشبه المغتاب بالآكل من لحم الإنسان الميت فقال :

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

أما النميمة فهي نقل الكلام من إنسان إلى آخر للإفساد بينهما . وقد نهى الله عن طاعة النمام والثقة به فقال :

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم : ١٠ـ١١] .

وتأثير تحريم الغيبة والنميمة كبير في صفاء العلاقات الإنسانية ومنع النزاع والخلاف بين الناس . ولهذه الأخلاق تأثير عظيم في تطهير النفس من المفاسد ، وتخليص المجتمع مما يكدر العلاقات بين أفراده[1] .

---

(١) هذا الفصل مقتبس من كتاب الباحث : « منهج التربية في القرآن والسنة » ص ٦٣ـ١٤٨ مع بعض التعديل .

الأخلاق عند الفلاسفة :

لقد تأرجحت نظرة الفلاسفة إلى الأخلاق بين الإفراط والتفريط : فأرسطو تحول من الاهتمام بالتفصيلات العلمية إلى المشاكل الأخلاقية عندما نضج والتف حوله الشباب طلباً للعلم والتهذيب ، وبدا له أن السؤال الأساسي الذي يفوق جميع الأسئلة التي تناولت العالم الطبيعي هو السؤال عن الحياة الفاضلة ماهي؟ وما هو الخير الأعظم في الحياة؟ وما هي الفضيلة؟ وكيف نستطيع بلوغ السعادة وتحقيقها؟ وطريق نيل السعادة عنده استعمال القوى العاقلة أحسن استعمال . والفضيلة عنده وسط بين رذيلتين ، كالكرم وسط بين السرف والبخل[١] .

وسبينوزا[٢] جعل السعادة هدفاً للأخلاق ، وعرّف السعادة بأنها وجود اللذة وانتفاء الألم . وأساس الفضيلة عنده هو مجهود الإنسان في الاحتفاظ ببقائه . وسعادة الإنسان تتألف من قدرته على حماية وجوده ، وجميع الفضائل في نظرة متفرعة عن القوة والمقدرة[٣] .

أما جون لوك فقد جعل الأخلاق مقياساً للسلوك الإنساني ، واعتقد أن القواعد الأخلاقية ليست من وضع الجماعة السياسية ، وليست من وضع

---

(١) ول ديورانت/ قصة الفلسفة ص ٨٦ ، أحمد أمين/ الأخلاق ص ١٣٤ .

(٢) سبينوزا (١٦٣٢ـ١٦٧٧) : فيلسوف هولندي ولد لأب يهودي برتغالي . درس فلسفة ديكارت ، ووضع طريقة خاصة به ، ونشر مذهب الحلول . وقد حكم عليه فلاسفة القرن السابع عشر بكفره . له عدة مؤلفات فلسفية وسياسية [رابوبرت/ مبادىء الفلسفة ص ٢٠٦ـ٢١٧ ، إيرمسون/ الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ١٨٠] .

(٣) ول ديورانت/ قصة الفلسفة ص ٢٢٦ـ٢٢٧ .

البشر ، بل هي قانون الله ، إلا أنه أنكر أن تكون المبادىء الأخلاقية مفطورة في العقل الإنساني[١] .

وأما كانت فقد جعل الأخلاق هي الأساس الذي يقوم عليه الدين ، وهي مستمدة من فطرة الإنسان ، لأنه يشعر إذا تعرض للإغراء أن هذا العمل خطأ ، ويكون العمل فاضلاً وصالحاً بموافقته للأخلاق ، وليس بما فيه من حكمة ولا ما ينتج عنه من نتائج حسنة ، وليست الأخلاق عنده مبدأ يعلمنا كيف نجعل أنفسنا سعداء ، ولكن كيف نجعل أنفسنا جديرين بالسعادة[٢] .

وهناك فلاسفة أنكروا أن الأخلاق مستمدة من الدين أو الفطرة ، وزعموا أنها تصدر عن المجتمع ، إذ قال هلفيتوس (١٧١٥ـ٧١) ولامتر (١٧٠٩ـ٥١) : يجب أن لا تقوم الأخلاق على الدين واللاهوت بل على علم الاجتماع ، كما أن حاجات المجتمع المتغيرة لا وحي العقيدة الثابتة التي لا تتغير هي التي ينبغي أن تقرر الخير[٣] .

وتناول الناقدون في القرن التاسع عشر نظرية كانت في الأخلاق ، وأنكروا إطلاقها وفطريتها .

وذهبت فلسفة التطور إلى أن شعور الإنسان بواجبه ليس صادراً عن أخلاق فطرية ، ولكنه مستمد مما أودعه المجتمع في الفرد من قواعد السلوك ، وأن الضمير مكتسب على الرغم من أن النزعة الغامضة في الإنسان نحو السلوك الاجتماعي فطرية فالأخلاق نتيجة تطور استغرق فترة

---

(١) زكي نجيب محمود وأحمد أمين / قصة الفلسفة الحديثة . ج ١ص ١٤٤.

(٢) ول ديورانت/ قصة الفلسفة ص : ٣٤٩ـ٣٥٠ ، أندريه كرسون : الأخلاق في الفلسفة الحديثة ، ص ٥٩ـ٧٣ .

(٣) ول ديورانت/ قصة الفلسفة ص ٢٨٨ .

طويلة من الزمان وليست عامة مطلقة ، ولكنها قانون للسلوك يتطور وينمو بما هو ملائم لحياة الجماعة ، وهي متغيرة بتغير طبيعة الجماعة وظروفها ، وليس هناك عمل خير في ذاته كما يقول « كانت »[1] .

ومعلوم أن المجتمع مؤلف من عدة أفراد ، فمن بين هؤلاء الأفراد يضع القواعد الأخلاقية؟

وذهب سبنسر إلى وجوب بناء الأخلاق على أساس بيولوجي أي على علم الحياة بإخضاعها إلى قوانين التطور وانتخاب الطبيعة . والأخلاق تكون خيراً أو شراً بمقدار ملاءمتها أو عدم ملاءمتها لغايات الحياة ، وأعظم الأخلاق وأسماها هي التي تساعد على أعظم وأكمل حياة .

ويرى أن الطبيعة قد زودتنا بمقياس دقيق نميز به الخبيث من الطيب ، وهو مقياس اللذة والألم ، فاللذة تشير إلى منفعة الشيء من الناحية البيولوجية ، والألم يشير إلى خطورته من تلك الناحية .

وقال : إن المجتمع العسكري يمجد ويعظم فضائل معينة ، ويصفح ويتسامح عن ارتكاب أعمال تعتبرها الشعوب الأخرى جرائم ؛ فالعدوان والسلب والنهب والغدر والخيانة أمور مستباحة بين الشعوب المحاربة ، بخلاف الشعوب التي علمتها الصناعة والسلام قيمة الأمانة والمسالمة وعدم الاعتداء ، إذ تزدهر الإنسانية والكرم أكثر حيث تقل الحروب ، كما أن فترات الإنتاج الطويلة الهادفة تولد في الناس فائدة تبادل المساعدة[2] .

وكذلك دعا فردريك نيتشه[3] إلى إعادة بناء الأخلاق والدين على

---

(١) ول ديورانت/ قصة الفلسفة ص ٣٦٩ـ٣٧٠ .

(٢) ول ديورانت/ قصة الفلسفة ص ٤٨٨ـ٤٩٠ ، عادل العوا/ المذاهب الأخلاقية ج٢ ص ٢٢٠ـ٢٢٤ .

(٣) نيتشه ، فردريك (١٨٤٤ـ١٩٠٠) : ولد في بروسيا ، ودرس فقه اللغة وعين أستاذاً=

أساس نظرية التطور ، وقال بأخلاق للأقوياء مختلفة عن أخلاق الضعفاء فالأولى تقوم على القوة ، والأخرى تقوم على الشفقة واللطف . وقال : الخير هو الشجاعة وما يزيد الشعور بالقوة ، والشر هو ما ينشأ عن الضعف[١] .

وأنكر ديوي أن يكون علم الأخلاق علماً نظرياً مجرداً ، ونادى بأن يكون جزءاً من الحياة ، وعد الخير ما يخدم غايات الجماعة ومطالب الفرد فيها ، وصالح الفرد هو المقياس للخير والشر[٢] .

ودراستنا للأخلاق تبين أنها ثابتة غير متطورة . وأنها ملائمة لكل الأحوال ، وتدفع إلى الرقي والازدهار ، كيف لا وهي مستمدة من محكم التنزيل ؟!

وقد باءت جهود هؤلاء الفلاسفة الذين أرادوا أن يبتروا الأخلاق عن قواعد الدين والفطرة الإنسانية بالفشل ، مما حمل الفيلسوف جورج سانتيانا على القول :

« إن المشكلة الكبرى التي ينبغي على الفلسفة إيجاد حل لها هي وسيلة تحمل الناس على التمسك بالفضيلة بغير إثارة آمال الغيب ومخاوفه في نفوسهم »[٣] .

= في جامعة بازل بسويسرا . كان يحيا حياة متواضعة في عزلة تامة ، وأصيب بانهيار عقلي وجسمي قبل موته بعشر سنين ، وبقي مجنوناً حتى وفاته ، وقد أثر تأثيراً عميقاً على فلسفة أوروبا وأدبها ، وخاصة في ألمانيا وفرنسا . من كتبه : مولد المأساة ، الفجر ، العالم المرح ، وهكذا تكلم زرادشت [رابوبرت/ مبادىء الفلسفة ص ٢٢٧ـ٢٢٨] .

(١) ول ديورانت/ قصة الفلسفة ص ٥١٦ ، ٥٢٨ ، ٥٣٣ ، إيرمسون/ الموسوعة الفلسفية المختصرة ص ٣٧٧ـ٣٧٨ عادل العوا/ المذاهب الأخلاقية ٢/ ٣٠٣ـ٣٠٩ .

(٢) عادل العوا/ المذاهب الأخلاقية ج٢ ص ٦٠٧ـ٦٠٨ .

(٣) ول ديورانت/ قصة الفلسفة ، ص ٦١٠ .

obeikandl.com

ونحن نسأل : أي قداسة تكون للأخلاق التي لا تستمد من قواعد الدين ، وما الذي يدفع إلى الالتزام بالأخلاق سوى عقيدة الإيمان بالحساب والجزاء في الآخرة ؟!

وليس أدل على فشل التربية المبتورة عن العقيدة والعبادة وانهيار الأخلاق المبتورة عن الدين من انتشار الفساد والجريمة في المجتمع ، حتى في المدارس التي ينبغي أن تكون مراكز للخلق والفضيلة ، وهذه بعض الوقائع الدالة على تفشي الانحلال والانهيار الأخلاقي بين الطلبة في الولايات المتحدة :

١ـ تنفق الولايات المتحدة سنوياً ٥٩٠ مليون دولار لإصلاح الخراب الذي يحدثه الطلبة في المدارس . وثمن الزجاج الذي يحطم في مدارس مدينة واحدة يعادل ثمن بناء مدرسة جديدة .

٢ـ تنفق المدارس رواتب للحراس ما يعادل أثمان الكتب المدرسية سنوياً . وفي لوس أنجلوس تنفق إدارة التعليم مليوني دولار كرواتب لحراس المدارس ، وفي نيويورك تنفق أربعة ملايين دولار لذلك .

٣ـ في المدارس ضباط أمن لمنع الاعتداء على الحياة والأعراض ، ومع ذلك فقد ذكر السيناتور « بيرتش باي » أن عدد الطلبة الأمريكان الذين قتلوا خلال الخصومات في ساحات المدارس ما بين عامي ١٩٧٠ـ١٩٧٤ يفوق عدد القتلى من الجنود الأمريكان في فيتنام خلال الفترة المذكورة . ويتكرر الاعتداء على المعلمين وتغتصب المعلمات والطالبات في اليوم الواحد مئات المرات . ومن التعليمات التي توزع على المعلمات والطالبات أن لايقفن منفردات في أي ساحة من ساحات المدرسة .

٤ـ يباع بين طلاب المدارس من المخدرات يومياً في نيويورك ما قيمته ستمئة دولار .

٥ـ أصدرت لجنة خاصة عام ١٩٧٤ في نيويورك تقريراً بعنوان :

« الجريمة في المدارس » كشف أن هناك شبكات بغاء تجند الطلاب والطالبات في المدارس[١] .

وبذلك يتضح أنه لا صلاح للعالم إلا بالتمسك بالأخلاق الحميدة التي دعا إليها القرآن الكريم ، ولا نجاح للتربية حتى تقوم على أساس العقيدة والعبادة والأخلاق .

* * *

(١) د . كيلاني/ فلسفة التربية الإسلامية ـ ط٢ ـ ص : ١٠٥ـ١٠٦ .

obeikandl.com